عبقرية محمد

تأليف

عباس محمود العقاد

الناشر الوحيد في كافة البلاد العربية والاسلامية

المكتبة العصرية

للطباعة والنشر

صاحبها: شريف عبد الرحمن الأنصاري

تلفـــون : بيروت ٢٣٧٥٤٥ ص. ب. ٨٣٥٥

صيدا ٧٢١٦١٢ — ٧٢٠٣١٧

مقدمة

احمد الحق تبارك وتعالى ، واصلي واسلم على خاتم أنبيائه ورسله : خير خلق الله ، واحب عباد الله الى الله .. محمد بن عبد الله ... صلاة وسلاما يليقان بمقامه الكريم ، وصلاة وسلاما على سائر اخوانه من النبيين والمرسلين ، وصلاة وسلاما على أصحابه والتابعين ، وصلاة وسلاما على كل من دعا بدعوته الـى يوم الدين .

وبعد :

فان الكتابة في رسول الله ، والقراءة عن رسول الله ، عمل تهنأ به النفس ، وينشرح له الصدر ، ويتفتح معه القلب ، ويأخذ بمجامع اللــب ، وتستريح في ظله الخواطر ، وتتسع في رحابه الابصار والبصائر .

وكيف لا ؟ ومحمد وحده نبــع صافي ، وري شــافي ، وهدي كافي ، وسيرته العطرة لا ينضب معينها ، ولا يجف مدادها ، لانها متلاحمة مــع كلمات الله : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » .

وكيف لا ؟ وهو مثال الانسانية الكاملة ، وملتقى الاخلاق الفاضلة ، وحامل لواء الدعوة العالمية الشاملة !!

اما انسانيته : فقد ولدت معه ، ولازمته في أطوار حياته ، وميزته على سائر اقرانه ولداته ، وصانته من كل زلل ، وحمته من كل شطط ، ودفعته دائما الى الخير ، ومثالية السلوك .

فكان نبتة رطبة بين قلوب قد قست ، وطباع قد غلظت ، وعواطف قد جفت ، ومشاعر قد تلبدت ، وعقول قد تحجرت ...

وكان زهرة نضرة وسط غابة من الاشواك ، في أطرافها حدة ، وفي جذوعها خشونة وغلظة ، وفي لمسها أذى وايلام ...

وكان شجرة سامقة مثمرة ظليلة ، وسط صحراء قاحلة ، وفلاة مجدبة ... وهو في حالاته الثلاث : كثير النفع .. عظيم العطاء ..

ولا عجب اذن ــ قبل ان يكولا رسلا ــ ان سلطت عليه الاضواء ، ولم تتنازع في انسانيته الاهواء ، وانتزع ــ عن جدارة ــ من بين القلوب الغلاظ ، والالسنة الحداد ، اعترافا بعفة نفسه ، وعذوبة حسه ، وسمو سلوكه ، وعلو انسانيته ... فكان الصادق الامين !

واما اخلاقه : فكانت مستمدة من عند الله ، فهو ــ سبحانه ــ الذي صنعه على عينه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وجعله بشرا سويا ، وخلقا رضيا، وكيف لا ؟ وقد سئلت أم المؤمنين عائشة ــ رضوان الله عليها ــ عن اخلاقه، فأجابت : « كان خلقه القرآن » .

وهل القرآن الا كتاب الله ، وهدي السماء ؟؟

وكيف لا ؟ ــ ايضا ــ والهدف من رسالته ، والغاية من دعوته ، ما افصح عنه في عبارته : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

وكان احب الناس اليه : احسنهم خلقا ، واكثرهم ادبا ، واقومهم سلوكا .. « ان احبكم الي ، واقربكم مني منازل يوم القيامة : احاسنكم اخلاقا .. الموطأون اكنافا .. الذين يألفون ويؤلفون » !!.

وكان ارفع وسام لرسول ، واسمى وصف لنبي .. ما جاء في محكم التنزيل : « وانك لعلى خلق عظيم » .

ومما لا ريب فيه ، ان اخلاقياته وشمائله — عليه افضل صلاة وازكى تسليم — قد انعكست على اصحابه ، وتأصلت في هديه ، وكانت الصوت العالي في دعوته ، والنور الساطع المشع من رسالته ، فعمت ، واستمرت — ولو لم يتخلق بها المعرضون — وكفاها ... انها اخلاق محمد .. أو اخلاق القرآن .

واما عن الدعوة في عمومها وشمولها : —

فكانت نورا بدد الظلام .. وعدلا مسخ الظلم .. واملا اطاح باليأس .. وفيضا بعد جفاف .. وارتواء بعد صدى .. حددت الداء ، ووصفت الدواء ، ليسلم الناس .. كل الناس ، وتسعد البشرية .. في ظل القيم الاسلامية ، وتتخطى حواجز الخلل التي ابعدتها عن فطرتها ، ونأت بها عن قيمتها ، وتحيا في جو من الانسانية .. يؤمن بانسانية محمد .. وعظمة محمد .. وعبقرية محمد .

والعبقرية ، صفة خلعها الكتاب ، والادباء ، والباحثون ، على كل حاذق بارع في فن من الفنون .

ولو قارنا بين عبقرية محمد .. وعبقرية غيره : لوجدنا ان عبقرية غيره قد انحصرت في جانب من الجوانب ، او اتجاه من الاتجاهات .. فهي ضيقة في مدلولها .. محدودة في آفاقها .. قاصرة عن عموم النفع ، وشمول الاصلاح ..

اما عبقرية محمد : فقد برزت في كل مناحي القيادة ، والاخلاق ، والدعوة ، بل في كل مناحي الحياة .. مما جعلها عبقرية شامخة وفريدة .. وصلت في شموخها عنان السماء ، فلو تدانت منها غيرها لهوت ، ولو حلقت اليها غيرها لسقطت .

ومن هنا ... ظهرت « عبقرية » العقاد في كتابه عن « عبقرية محمد » ، والاستاذ العقاد : مشهود له بالالمعية والذكاء ، وهو غني عن التعريف ، ولا يحتاج الى اضواء تسلط عليه .. فقد عودنا ان يكون هو المسلط للاضواء .

بيد اننا نريد ان نقول :

ان الاستاذ العقاد قد تصدى في هذا الكتاب للدفاع عن رسول الله ، والذود عن شرعته ، والرد على شانئيه ممن اجترأوا على مناوأته ، والاتيان بالبرهان تلو البرهان : على اثبات عظمته ، وعظمة دعوته ، وقدسية رسالته ، وسمو عبقريته .. وهل يفعل ذلك .. الا محب غيور ، وحاذق هصور ، و « عبقري » بلا تطاول ولا غرور ؟؟

لقد تناول الكشف عن عبقرية محمد في قوله وفعله ، بل في سكوته وفكره .. فأفاد .. واجاد ، واستعرض فأبدع ، واستقصى فأشبع ، وتألقت غيرته على محمد — صلى الله عليه وسلم — في رد سهام مناوئيه الى نحورهم ، واقحامهم في كل باطل من دعاويهم .. وقف لهؤلاء اللاغطين والمغالطين بالمرصاد ، وتعقب كل لغط لهم وغلط :

فاظهر كيدهم ولجاجتهم وافتراءهم في ادعائهم : ان الاسلام قد قام على حد السيف ، وان محمدا كان يستهوي القتل ، ويتعشق رؤية الدماء ، وان دين محمد قد أباح العبودية ، واجاز الرق ، وان تعدد زوجات محمد كان استجابة للذات حسه ، وان الاسلام قد تخطى الانصاف في اباحته تعدد الزوجات ، وتوقيع العقوبة عند نشوز الزوجة ، وجواز الطلاق ... الخ .

واستطاع العقاد — في اقتدار وابداع — ان يحيل مواطن التهم — كما ارادوها — الى مواقف عظمة ، وعبقرية ، ونخار .

ولست براغب في سرد كل ما حواه الكتاب من ابحاث ... لاتـرك للقارىء الكريم فرصة المتعة في البحث عن الدرر ..

بيد أني راغب في الافصاح عن شعوري نحو هذا الكتاب ، وما رغبت في ذلك الا لانه قد أبكاني ، واضحكني ... أبكاني حتى انتفضت ، واضحكني حتى استلقيت ... أبكاني عند عرضه لاسلام عمر .. وابكاني عندما وصف حالة رسول الله لما توفي ابنه ابراهيـم .

واضحكني عندما قرات عن دعابات الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومزحه ، وحسن قبول الدعابات في نفسه ، وما كان من أمر نعيمان بن عمرو . وعبد الله الخمار ..

على ان هذه المواقف لم تكن جديدة علي عندما قرات هذا الكتاب .. ولكن الذي حرك المشاعر ، واثار الخواطر ، واهاج الاحاسيس ، حتـى اضحك .. وابكي .. انما هو : جمال العرض ، وصدق التعبير ، ودقـة التحليل ، وروعة الاستقصاء ...

وهذه سمات تميز بها العقاد .

فجزاه الله خير الجزاء .

مهدي عبد الحميد مصطفى
مبعوث الازهر الشريف في لبنان

مقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذي سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام ٠

وكنت آقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام ٠

ولنا رهط (١) من الاصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون في قراءة كتبه العربية والافرنجية ، ويترددون معا على الأحياء الوطنية ، وقلما يترددون على غيرها ٠ فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحي الحسيني والحي الزينبي ، أو بين منشية القلعة ، وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والخليج ٠٠ على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة في كثير من الأوقات ٠

وكان رهطا له نقائض (٢) الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشيء في العاصمة وناشيء في الريف وناشيء في الصعيد وناشيء في الثغور (٣) ، الى غير ذلك من النقائض التي كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من دواعي التفرق والشتات (٤) ٠

★ ★ ★

ومن عجائبها أن الذي كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءتها في الكتب الافرنجية التي كانت شائعة (٥) بينها ، لأنهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب «دكنز» و «هازليت» و «لي هانت» و «كارليل» ٠٠ وهم كتّاب مولعون (٦) بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين ، والحضريين (٧) في أوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الأسواق ، والدكاكين ، والباعة ، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة ، وتعوّد من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها (٨) حيثما رآها ٠

ففي يوم من أيام المولد ــ والرهط يزورني لنؤم (٩) الساحة

---

(١) ما دون العشرة من الرجال (٢) نقيض الشيء : عكسه (٣) المراد : المدن المطلة على الشواطىء (٤) بمعنى الفرقة (٥) ذائعة منتشرة (٦) أي شغوفون (٧) سكان المدن (٨) أشباهها ومثيلاتها (٩) نقصد ٠

مجتمعين في المساء ــ كان الكاتب الانجليزي العظيم توماس كارليل هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب الأبطال الذي عقد فيه فصلا عن النبي محمد عليه السلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل ٠

★ ★ ★

وانا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي ، اذ بدرت (١) من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية (٢) غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية (٣) وكان الفتى الذي بدرت منه الكلمة متحذلقا (٤) يتظاهر بالمعرفة ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة ٠٠ فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج ، وشيء عن البطولة ، فحواه : أن بطولة محمد انما هي بطولة سيف ودماء !

قلت : « ويحك (٥) !٠٠ ما سوغ (٦) أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية ! » ٠

وقال صديقنا المازني : « بل السيف أكرم من هذا ، وانما سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه ٠٠ وأشار الى قدمه ! » ٠

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة (٧) ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى (٨) ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خيل اليه أنه مقبول ٠

وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد (٩) كارليل للنبي ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه ٠ ثم سألني بعض الاخوان : « ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط (١٠) الحديث ؟ » ٠

قلت : « أفعل ٠٠ وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب » ٠

ولكنه لم يتم في وقت قريب ٠٠ بل تم بعد ثلاثين سنة ! وشاءت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله في مثل الأيام التي سمعت فيها الاقتراح لأول مرة ٠٠ فكتبت السطر الاخير فيه يوم مولد

---

(١) أي تسرع واحتد فاخطأ (٢) خارجة (٣) الضمير (٤) مدعيا العلم (٥) بمعنى ويلك (٦) جوّز (٧) أي فترة (٨) مجلس القوم ومتحدثهم (٩) تعظيم (١٠) المنهج أو النظام ٠

النبي على حسب الشهور الهجرية ، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير مني ولا من أحد ، لأني لم أدبر لنفسي أوقات الفراغ التي هيأت لي اتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم ٠

★ ★ ★

والخيرة في الواقع ٠٠

والخيرة كذلك في هذا التأخير ٠٠

فانني لو كتبته يومئذ لعدت الى كتابته الآن من جديد ، واحتجت الى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية الى محصول ذلك العمر الباكر (١) ٠٠ اذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلىء فيه اعجابا بمحمد ، لأنه عمر الاعجاب والحماسة الروحية ٠ بيد انه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه ، وفي مثل السن التي اضطلع فيها بالرسالة ٠ وان تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو (٢) البعيد من شتى (٣) نواحيه ٠

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟٠٠

انها مسافات في عالم الفكر والروح ٠٠ لو تمثلت مكانا منظورا ، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار ٠

كم رأي ؟٠٠ كم مذهب ؟٠٠ كم وسواس ؟٠٠ كم محنة ٠٠ كم مراجعة ؟٠٠ كم زلزال يتضعضع (٤) له الكيان وتميد (٥) معه الدعائم (٦) والأركان ؟٠٠ كم وكم في ثلاثين سنة مما يطرق نفسا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض (٧) لمحة عين في نهار ؟٠٠ وكم لذلك كله من أثر في توطيد (٨) الرأي وتهدئة الثوائر (٩) وتجلية الغبار ؟٠٠ وكم يضيف ذلك كله الى الشباب الباكر الذي كان يحلم يومئذ بالعظمة في كل أوج (١٠)، وبالأوج المحمدي في عليا مراتب الأنبياء ؟٠٠

الخيرة في الواقع ٠٠

الخيرة في ذلك التأخير ٠٠

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن « عبقرية محمد » بين يدي

---

(١) اول العمر (٢) الغاية والامد (٣) اي جميع (٤) يتهدم (٥) تتمايل وتتحرك (٦) الاعمدة (٧) ما يعترضها في جنباتها (٨) تقوية (٩) اي الانفعالات (١٠) الاوج : ضد الهبوط ٠

القراء ، لا نقول ٠٠ اننا قد استوفيناه كما أردناه ، ولا اننا فصلنا فيه الغرض الذي توخيناه (١)٠٠ولكننا نقول اننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة ٠ كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغط (٢) بها الأغرار (٣) والجهلاء عن حذلقة (٤) أو سوء نية، ونظرنا اتفاقا ، فاذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية ٠٠ لأنهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مثار اللغط في كل ما ردده سفهاء الشانئين (٥) من الأصلاء والمقتدين في هذا الباب ٠

★ ★ ★

فسيرى القارىء أن « عبقرية محمد » عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها ، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التي حفلت بها « المكتبة المحمدية » حتى الآن ٠٠ لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار (٦) في هذا الموضوع ، ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد ٠

وليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو مجادلة لخصومه ٠٠ فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى(٧) يكتب فيها من هم ذووها (٨) ولهم دراية بها وقدرة عليها ٠

انما الكتاب تقدير « لعبقرية محمد » بالمقدار الذي يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث (٩) له الحب في قلب كل انسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى ٠

فمحمد هنا عظيم ٠٠ لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس ٠٠

عظيم لأنه على خُلق عظيم ٠٠

---

(١) قصدناه (٢) اللغط : الصوت والجلبة (٣) الغافلون (٤) ادعاء للعلم (٥) المبغضين (٦) الكتب (٧) كثيرة ومتعددة (٨) اصحابها المتخصصون فيها (٩) ينشر ٠

وايتاء العظمة حقها لازم في كل آونة (١) وبين كل قبيل ·· ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى ، سببين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم أحوج ما كان الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة ·· ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط (٢) الحق معرض للجفوة (٣) والكنود (٤) ·

والسبب الآخر أن الناس قد اجترأوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم الى هدايتها ·· فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية (٥) النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة ·· والمساواة هي شرعة (٦) السواد (٧) الغالبة في العصر الحديث ·

★ ★ ★

ولقد جار هذا الفهم الخاطيء للمساواة على حقوق العظماء السابقين ، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين ، ثم أغرى الناس بالجور (٨) بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث ، واعتقادهم انه قد أتى بالجديد الناسخ (٩) للقديم في كل شيء ·· حتى في ملكات النفوس والأذهان ، وهي مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم ·

يرون أن البخار يلغي الشراع (١٠) ، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذي تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه ··

وينظرون الى أقطاب الدنيا كأن الأصل في النظر اليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا (١١) كرامتهم ، ولا يثوبوا (١٢) الى الاعتراف لهم بالفضل الا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجني والثلب والافتراء (١٣) ·

هذه الآفة تهبط بالخلق الانساني الى الحضيض (١٤) ·

وتهبط بالرجاء في اصلاح العيوب الخلقية والنفسية الى ما دون الحضيض ··

---

(١) اي رقت (٢) غمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم (٣) المراد : الهجر والغلظة (٤) كفران النعمة والتنكر للفضل (٥) جمع علي وهو الشريف الرفيع (٦) شريعة (٧) سواد الناس : عوامهم (٨) الظلم (٩) المزيل (١٠) شراع السفينة (١١) يعيبوا (١٢) يرجعوا (١٣) الاختلاق (١٤) القرار من الارض عند منقطع الجبل ·

فماذا يساوي انسان لا يساوي الانسان العظيم شيئا لديه ؟ وأي معرفة بحق من الحقوق يناط (١) بها الرجاء اذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ؟٠٠ واذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟٠

لهذا كان تقدير « محمد » بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في اقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعا في هذا الزمن الذي التوت فيه مقاييس التقدير ٠٠

انه لنافع لمن يقدرون محمدا ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه لأنه في عظمته الخالدة لا يضار (٢) بانكار،ولا ينال منه بغي (٣) الجهلاء الا كما نال منه بغي الكفار ٠

وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشواهد والبينات التي يراها غير المسلم ، فلا يسعه الا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها ٠٠ لأن مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحب محمـدا مرتين : مرة بحكم دينه الذي لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الانسانية التي يشترك فيها جميع الناس ٠٠

وحسبنا من «عبقرية محمد» أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية،الا أن يرين (٤) العنت (٥) على الطبائع فتنحرف عن السواء وهي خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء ٠

★ ★ ★

ان عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله (٦) المكان الأسنى (٧) من التعظيم والاعجاب والثناء ٠٠

انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله ، ولم تكن أصناما كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال ان

---

(١) يتعلق (٢) يصيبه ضرر (٣) عدوان وظلم (٤) يغلب (٥) الاثم ٦ ـ تمليكه ٧ ـ الرفيع ٠

فاته أن يحسب له هدى الضمير • ولكنهـا أصنام شائهات (١) كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق وتفسد العقول ، فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة (٢) الى عبادة الحق الأعلى •• عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود (٣) الى حركة ومن فوضى الى نظام ، ومن مهانة (٤) حيوانية الى كرامة انسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات •

ان عمله هذا لكاف لتخويله المكان الأسنى بين صفوة الأخيار الخالدين ، فما مـن أحد يضن (٥) على صاحب هذا العمـل بالتوقير (٦) ثم يجود بالتوقير على اسم انسان •

الا أننا نمضي خطوة وراء هذا ، حين نقول ان التعظيم حق « لعبقرية محمد » ولو لم تقترن بعمل محمد ••

لأن العبقرية قيمة في النفس قبل أن تبرزها (٧) الاعمال ويكتب لها التوفيق ، وهي وحدها قيمة يغالي (٨) بها التقويم •

فاذا رجح بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة •• فهو نبي عظيم وبطل عظيم وانسان عظيم •

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانا (٩) تومىء (١٠) الى تلك العظمة في آفاقها ، فان البنان لأقـدر على الاشارة مـن الباع (١١) على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير •

عباس محمود العقاد

---

١ ـ قبيحات ٢ ـ الاصنام القبيحة ٣ ـ خمول وسكون ٤ ـ مذلة ٥ ـ يبخل ٦ ـ التعظيم ٧ ـ تظهرها ٨ ـ غالى بالشيء : اشتراه بثمن غال ٩ ـ اصبع ١٠ ـ تشير ١١ ـ الباع قدر مد اليدين •

علامـات مـولد

كان عالما متداعيا (١) قد شارف (٢) النهاية ·· خلاصة ما يقال فيه : انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام ··

أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر ·· طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون (٣) الى قوة في الغيب ، تبسط العدل ، وتحمي الضعف ، وتجزي الظلم ، وتختار الاصلح الاكمل من جميع الأمور ·

وطمأنينة الظاهر التي تنشأ مـن الركون الى دولـة تقضي بالشريعة ، وتفصل بين البغاة (٤) والأبرياء ، وتحرس الطريق ، وتخفيف العائثين (٥) بالفساد ·

بيزنطة قد خرجت من الدين الى الجدل (٦) العقيم (٧) الذي أصبح بعد ذلك علما عليها ، وتضاءلت سطوتها (٨) في البـر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمي بجوارها ·

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس ··وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة (٩) ، وبواعث الفتن ، ونوازع الشهوات·

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة ، وبين التوحيد الذي هو ضرب من عبادة الأوثان· ثم هي بعد هذا التشويه في الدين ، ليست بذات رسالة في الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ ·· فليس لها عمل باق في سجل الأعمال الباقيات ·

عالم يتطلع الى حال غير حاله ·· عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم للبناء ·

---

١ ـ اي ضعيفا غير متماسك ٢ ـ المراد : قارب ٣ ـ من ركن : اي مال وسكـن
٤ ـ الجناة الظالمين ٥ ـ العيث : الافسـاد ٦ ـ النقاش والحوار ٧ ـ غير المفيـد
٨ ـ ضعفت قوتها ٩ ـ المراد : بواطن الشر والهلاك ·

وبين هذه الدول المتداعيات ، أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لاقامة دولة ‎•• هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودهـا وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها•

في أيديها تجارة العالمين كلها ‎••

فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم ، فهي تسير في البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للـدول المتداعية ‎•• أو هم قد شعروا بذلك السلطان حينا في ابان (١) الصولة الرومانية والصولة (٢) الفارسية، ثم علموا أنهم مالكون لزمامهم (٣) يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق ، ويغضبون فتبور التجارة وينضب (٤) المورد وتكسد الأسواق •

واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر الروم ، فهي في جيرة (٥) الأعراب من كلتا الطريقين •

أمة تيقظت لوجودها ، وعرفت شأنها بين من يحدقون (٦) بصحرائها ‎•• ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليهـا ، ويريدون اخضاعها وابتلاعها ‎••

فهرقل الرومي يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشي يزحف الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبـة غيرها ، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها ‎••

خطر من خارجها ، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها ‎••

وخطر من داخلها ، يدفع بها دفعا الى الزوال أو الى استكمال النقص المستشري (٧) في حياتها ‎••

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة ، وعصبة (٨) واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة ‎••

حالة لا استقرار فيها ‎••

---

١ ـ وقت المتجبرة ٢ ـ القوة ٣ ـ المراد : ما يقودهم ٤ ـ نضب الماء غار في الارض ٥ ـ الجوار ٦ ـ يحيطون ٧ ـ المراد : المستفحل والمتزايد ٨ ـ ما بين العشرة الى الاربعين من الرجال •

فمن هنا الترف (١) ، والطمع ، والخمر ، والقمار ، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء ••

ومن هنا الفاقة (٢) ، والحسرة ، والشك في صلاح الأمور ••

ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذي يستجم (٣) ويستكين (٤) ، فحيثما اجتمع أناس من أولي الرأي يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير ، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه اجتمع أناس بنخلة (٥) لاحياء عيد العزى فقال رجل منهم لاخوانه : « لله ما قومكم على شيء ، وانهم لفي ضلال •• فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ومن فوقه يجري دم النحور ، يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذي أنتم عليه » •• ثم تفرقوا ، فمنهم من تنصر ، ومنهم من اعتزل الأوثان ، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الاسلام فلباها (٦) •

وكان الذي تنصر وسمع دعوة الاسلام ورقة بن نوفل الذي كتب له أن يتلقى بشارة النبي العربي عند ظهوره ويلقي اليه بالبشارة ، هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير •

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع (٧) من الضمير ، ووازع من السلطان • فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه • وذلك حلف الفضول الذي شهده النبي العربي في شبابه وقال فيه : « ما أحب أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم » •

حالة لا تستقر ، ولا تزال في طلب الاستقرار ••

وأمة يقظى !••

وخطر محدق (٨) بها مما حولها ، ومما هو في دخائلها وأحشائها •• حالة تنذر بالزوال ، وقلما تزول أمة يقظى في أوان انتباهها •• فتلك اذن حالة للتبديل والتجديد •

قبيلة

وقبيلة في تلك الأمة ، في تلك المدينة •• لها شعبتان :

احداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائما على هواها •

---

١ ـ نعومة العيش ٢ ـ الفقر والحاجة ٣ ـ يستريح ٤ ـ يهدأ ويستسلم ٥ ـ مكان ٦ ـ استجاب لها ٧ ـ سلطان ٨ ـ محيط •

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوي الذي يجور ويطغى ويستبيح أداة الجور والطغيان ،ومقام الضعيف الذي يحتمل الأذى ، ويصبر على الكريهة ، ولا يملك مع السيد الآمر الا أن يذعن (١) له ويأكل من فضلات يديه •

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة (٢) والكبرياء الجائحة (٣) ، والقسوة على من دونه من المحرومين •• ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها (٤) العليا ، وان لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية في ذلك الأوان •••

ورأس هذا البيت ـ عبد المطلب ـ رجل قوي الخلق قوي الايمان فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشدة ايمانه ،خليق(٥) أن ينجب العقب (٦) الذي يبشر بدعوة وينضح (٧) عن دين •

نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة •• ثم أحله قومه وأحلته العرافة من نذره ، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضى الرب ورضى ضميره • سألتهم العرافة : « كم الدية فيكم ؟ » •

قالوا : « عشر من الابل » •

قالت : « فتقربوا اذن بعشر من الابل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح •• فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم » فما زالوا يزيدون حتى بلغت الابل مائة وخرجت القداح (٨) عليها • فهتفت قريش بعبد المطلب : « لقد رضي ربك •• فأطلق فتاك » • وكان خليقا بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه ، ولكن عبد المطلب لم يكن من

---

١ ـ اي يخضع ٢ ـ أي الغالبة القاهرة ٣ ـ الشديدة ٤ ـ الذؤابة : الناصية او منبتها من الرأس ، والمراد الرفعة والشرف ٥ ـ جدير ٦ ـ ولده وولد ولده ٧ ـ المراد : يدافع ٨ ـ السهام •

المتحللين المتعللين ، فأبى الا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نحرت الابل للجياع من الأناسي (١) والسباع ٠

وجاء القائد الحبشي يهدم الكعبة ويسطو على الابل والشاة فلما سأله عبد المطلب أن يرد اليه ابله ، قال له مقال السياسي المحرج المداور (٢) بالكلام : « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة » ٠

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن : « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه ! » ٠

فكان ايمانه ايمانا كفؤا لدهاء السياسة ، ولم يكن ايمان العجز والتواكل والاستسلام ٠٠

ومن كان له هذا الخلق ، وهذا الضمير ، وهذا الايمان ،وهذه الرئاسة ، فليس من عجب أن ينجب نبيا في زمان يستدعي الأنبياء ، ومكان مهيىء لهم دون كل مكان ٠٠ بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان ٠

أب

واذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبي كريم ، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبي الكريم ٠٠

لكأنما كان بضعة (٣) من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا لتعقب (٤) فيها نبيا وهي لا تراه ٠٠ ثم تعود ٠

كان انسانا من طينة الشهداء، يتجه اليه القلب الانساني بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة ٠ فهو الفتى الذي اسمه عبد الله والذي اختير للفداء ، فجاشت (٥) له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر الى حين ٠ وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات في الخدور (٦) بوسامته وحيائه ، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام ، ثم سافر ليتجر فاذا هي السفرة التي لا يؤوب (٧) منها الذاهبون ٠ وهو الفتى الذي مات وهو غريب ، وولد له نسله الكريم وهو دفين ٠وهكذا تتمثل

---

١ ـ البشر ٢ ـ داوره مداورة ودوارا : اي دار معه ٣ ـ بفتح الباء : القطعة من اللحم ٤ ـ اي لتخلف ٥ ـ تحركت عاطفتهم ٦ ـ جمع خدر وهو الستر ٧ ـ يرجع ٠

البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء ·

رجـل

عالم يتطلع الى نبي ·· وأمة تتطلع الى نبي ، ومدينة تتطلع الى نبي ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجاب ذلك النبي ·· ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجـل آخر في صفاتـه ومقدماته ، ولا يدانيه (١) رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في المدينة ·· وفي الجزيرة ، وفي العالم بأسره ·

نبيل عريق (٢) النسب ·· وليس بالوضيع الخامل ، فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب ··

فقير ·· وليس بالغني المترف فيطغيه بأس النبلاء والاغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار ·

يتيم بين رحماء ·· فليس هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ (٣) الذي تقتل فيه القسوة روح الامل وعزة النفس وسليقة (٤) الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين ·

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في الباديـة والحاضرة ·· تربى في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجـارة وشهـد الحروب والاحلاف ، واقترب مـن السراة (٥) ولم يبتعد من الفقراء ··

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفايـة العربية ·· وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه ·· فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجتها (٦) ·· أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة ، على غير علم من الدنيا التي ترقبها ·

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام ··

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والجزيرة

---

١ ـ يقاربه ٢ ـ اي اصيل ٣ ـ البغيض الممقوت ٤ ـ طبيعة وفطرة ٥ ـ عليـة القوم وسادتهم ٦ ـ لجة الماء : معظمه ·

مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟ وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟ وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟• علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها •

فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟•• واذا تعذر عليها أن تجتمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟

خُلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين،والا فلأي شيء خلق ؟ ولأي عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به في سوق التجار والشراة •• ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال •

ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ، ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد ••

فالذي أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها ، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد •

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية •• يسردون (١) ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه ومن قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته .وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته،ويتفرقون

---

١ ـ يسرد الحديث ، اذا كان جيد السياق له ،

في الرأي والهوى بين تفسير الايمان وتفسير العيان (١) وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض (٢) أمر الاسلام ؟

لا موضع هنا لاختلاف ..

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في اقناع أحد بالرسالة يوم صدع (٣) النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد ، لم يعرفوا يومئذ مغزاها (٤) ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة .

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا (٥) الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة،لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه .

وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين .. يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين .

أما العلاقة التي لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها ، فهي علامة الكون وعلامة التاريخ ..

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة الى رسالة ..

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ..

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ ..

---

١ ـ عيان الشيء بكسر العين ، رآه بالعين ٢ ـ استزاد ٣ ـ صدع بلحاق ، تكلم به جهارا ٤ ـ مقصدها ومرادها ٥ ـ استمعوا .

عبقرية الداعي

اتفقت أحوال العالم اذن على انتظار رسالة ..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة ..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها الوسائل التي تؤدي بها رسالته على أحسن الوجوه .

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول

وكان من الممكن أن يظهر الرسول في البيت الصالح وفي البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التي يتم بها أداء الرسالة .

ولكن الذي اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق ، وكان المعجزة التي تفوق المعجزات ، لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولا سائغا (١) بغير عنت (٢) ولا استكراه .

فكان محمد مستكملا للصفات التي لا غنى عنها في انجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ .

كانت له فصاحة اللسان واللغة ..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة ..

وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها ..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول .. ولكنها هي التي عليها المدار في تبليغ الرسالة . ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال .

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ،

---

(١) سهلا ٢ ـ العنت ، الوقوع في امر شاق .

ولموضوع الكلام •• فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب •

أما فصاحة محمد •• فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه •

فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر » •

فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة •• وهذه هي فصاحة الكلام •

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس (١) •• فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه (٢) النطق الجميل •

أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من وصفه بذلك ـ عائشة رضي الله عنها ـ حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد (٣) كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصل ، يحفظه من جلس اليه » • واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على ايقاعها في أحسن مواقعها •• فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم ••

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون سليما في كلامه سليما في نطقه •• ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع اليه السامع في موضوعه •

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائغة (٤) من شتى نواحيها •• فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات الا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقا « جوامع الكلم » ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء (٥) ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام •

---

١ ـ المراد : محبوب ٢ ـ العوز ، الفقر والحاجة ٣ ـ المراد ، كثرة الكلام في التعبير عن المعنى ٤ ـ السهلة المقبولة ٥ ـ اي قدر •

الوسامة والثقة

وكانت له مع الفصاحة (١) صباحة ودماثة (٢) تحببانه الى كل من رآه ، وتجمعان اليه قلوب من عاشروه ، وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء •

وحسبك من حب الضعفاء اياه ، أن فتى مستعبدا يفقد أباه وأسرته ــ كزيد بن حارثة ــ ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة ، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه ••

وأن خادم خديجة رضي الله عنها ــ ونعني به ميسرة ــ يقدمه ليبشر سيدته بالربح والتوفيق في تجارته ، وهو أولى أن ينفس عليه (٣) ، وأن يدعي لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم • وحسبك من حب الأقوياء اياه أنه جمع على محبته اناسا بينهم من التفاوت في المزاج والخصال ما بين أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة ، وهم جميعا من عظماء الرجال • ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمثا محبوبا ، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم اياه نصيب كبير •• لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به ، واذا اتفقت الخصلتان حينا فمن الجائز أن تفترقا حينا آخر ، لأنهما في عنصر الخصال لا تتلازمان •

أما محمد فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان ، وكان مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه • وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه ، كما شهد بهما أحبابه وموافقوه ، وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم ، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم في دعوته فكان يسألهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني ؟ » فيقولون : « نعم ، أنت عندنا غير متهم » •• الا أن الانسان ينفر مما يصدمه في مألوفاته وموروثاته ، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه • فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقون محمدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة ، وانما كان بهم أنهم

---

١ ـ جمال ٢ـ سهولة الخلق ٣ ـ يحسده ويحقد عليه •

ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه فيمن يحب أو فيما يحب،وهو مفتوح العينين ناظر الى صدق ما يلقى اليه

الايمان والغيرة

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها ، وهذه الشمائل على ندرتها ، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج اليها الداعي أشد من احتياجه الى الفصاحة والصباحة •• وهي ايمانه بدعوته وغيرته على نجاحها ، فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان (١) وطلاقة القسمات (٢) • ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو اليه ، والغيرة عليه ••

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان •• وجاوره أناس أقل منه نبلا في النفس ولطفا في الحس ونفورا من الرجس ، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غير آدابهم في تلك الأيام ، فاذا جاوزهم في صدق وعيه ، وسداد سعيه ، فقد وافق المعهود فيه ، والموروث من جده وأبيه•

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه اياه الى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجم على هذا الايمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ،ولكنه تردد حتى استوثق (٣) ، وجزع حتى اطمأن • وخطر له في فترة من الوحي أن الله قلاه (٤) وأعرض عنه ، ولم يأذن له في دعوة الناس الى دينه ، ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحي قلبه ومن وحي صحبه •• فصدع بما أمر ، ورضي ضميره بما أوتي من الهداية على النحو الذي رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية،مع ما بينه وبينهم من فارق في الرتبة والأهبة(٥) وما بين زمانهم وزمانه من فارق في الحاجة الى الاصلاح •

فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة •

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من

---

١ ـ طلاقة اللسان ، القدرة على حسن التعبير ٢ ـ طلاقة القسمات ، ضاحك الوجه مشرقة ٣ ـ تيقن وتأكد ٤ ـ هجره ٥ ـ الاستعداد •

وجهتها الغاية التي بلغت ، وانما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى في الأفئدة،فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به وحجبوا بأيديهم نوره عامدين .

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم ان لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها ، وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ، ثم يخيل اليه أن الدعوة الاسلامية كانت فضولا غير مطلوب في هذه الدنيا ، وان نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الارهاب بالسيف والاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين .

أي ارهاب وأي سيف ؟..

ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمئات والألوف وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا (١) بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره .

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين .. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الارهاب (٢) والوعيد ،ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها الا حروب دفاع وامتناع .

أما الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين .. فلو

---

١ ـ لاذ ، أي لجأ ٢ ـ البطش والظلم .

كان هو باعثا للايمان ، لكان أحرى (١) الناس أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم ، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة ، فان حياة النعيم بعد الموت محببة الى المنعمين تحبيبها الى المحرومين ، بل لعلها أشهى الى الأولين وأدنى (٢) ولعلهم أحرص عليها وأحنى ، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء (٣) أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال·

★ ★ ★

لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر ··

ولم يكن السابقون الى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه ·· ولكننا ننظر الى السابقين وننظر الى المتخلفين ، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق ، ذلك هو الفارق بين الأخيار والاشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين (٤) وبين من يعقلون ويصغون (٥) الى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يصغون الى قول ·

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا ·· وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها ، أو بين مخدوع في النعيم وغير مخدوع · ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر ـ رضي الله عنه ـ في اسلامه فقصته في ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ، ينفي كل كلام يقال عن الوعيد والاغراء وأثرهما في اقناع الأقوياء أو الضعفاء·

قال ابن اسحق : « ··· خرج عمر يوما متوشحا (٦) بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا (٧) من أصحابه ·· قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء · ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : « من تريد يا عمر ؟ ·· » ·

---

١ ـ أجدر واخق ٢ ـ اقرب ٣ ـ المراد ، الاستطعام والتلذذ ٤ ـ المتجاوزين حدودكم والمتكبرين ٥ ـ يسمعون ويستجيبون ٦ ـ متقلدا ٧ ـ ما دون العشرة من الرجال ·

فقال : « أريد محمدا هذا الصابيء (١) الذي فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله » •

فقال نعيم : « والله لقد غرتك نفسك يا عمر !•• أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟• أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » •

قال : « وأي أهل بيتي ؟ » •

قال : « ختنك (٢) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ! وأختك فاطمة بنت الخطاب •• فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما » •

قال : « فرجع عمر عامدا الى أخته وختنه ، وعندهما خباب في مخدع (٣) لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينمة (٤) التي سمعت ؟ » •• قالا له : « ما سمعت شيئا !•• » •

قال : « بلى والله !•• لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه » •• وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه (٥) عن زوجها ، فضربها فشجها (٦)، فلما فعل ذلك قالت له أخته : « نعم •• قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » • فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى (٧) ، وقال لأخته : « أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا (٨) انظر ما هذا الذي جاء به محمد » • وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : « انا نخشاك عليها » •

قال : « لا تخافي » وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قرأها اليها ، فلما قال ذلك طمعت في اسلامه ، فقالت له : « يا أخي !•• انك نجس على شركك ، وانه لا يمسها الا الطاهر » ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » ، فقرأها فلما قرأ منها صدرا قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » فلما

---

١ ـ صبأ ، خرج من دين الى دين ٢ ـ زوج ابنتك او صهرك والمراد هنا ، الصهر ٣ ـ المراد ، مكان غير ظاهر ٤ ـ الصوت الخفي ٥ ـ لتمنعه ٦ ـ شج رأسه ، اي كسره وادماه ٧ ـ ارعوى عن القبيح ، أي كف وتراجع ٨ ـ سلفا •

سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له : « يا عمر ! والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فاني سمعته وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ٠٠ فالله الله يا عمر ! » ٠

فقال له عند ذلك عمر : « فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم » ٠ فقال له خباب : « هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه » ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه (١) ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف ، فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : « يا رسول الله ! ٠٠ هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف » ٠

فقال حمزة بن عبد المطلب : « تأذن له ٠٠ فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه » ٠

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائذن له ! » فأذن له الرجل ونهض اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته (٢) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه(٣) جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟٠٠ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة (٤) » ٠فقال عمر : « يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله »٠

قال : « فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم » فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم ٠٠٠ » ٠

هذه قصة اسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والاغراء ٠٠ خرج بالسيف ليقتل محمدا ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدرا من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو : « طه ٠ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ٠

١ ـ تقلده ٢ ـ حجزة الازار ، معقدة ٣ ـ جذبه ٤ ـ مصيبة من مصائب الدهر ٠

الا تذكرة لمن يخشى • تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى • له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (١) • وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى » • فلا جبن اذا ولا طمع في اسلام عمر بن الخطاب، بل رحمة وانابة (٢) واعتذار ••

ولم يكن في اسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه بأسا (٣) جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا باسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال ان الذين سبقوهم الى الاسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور ، فمن كان أقرب الى هذه الطلبة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ (٤) عنها فقد أبى (٥) •• وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للاسلام سيف يذود (٦) عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف • وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة الا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش ، في الاصرار والانكار • انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ••

فلا حاجة بها الى خارقة ينكرها العقل أو الى علة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء ، فهي أوضح شيء فهما لمن أحب أن يفهم، وهي أقوم شيء سبيلا لمن استقام •

---

١ ـ الثرى : التراب الندي ٢ ـ رجوع ٣ ـ قوة وشدة ٤ ـ ضلال ٥ ـ رفض ٦ـ يدافع•

حروب دفاع

قلنا في الفصل السابق أن الاسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون ، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار ٠

ونريد في هذا الفصل أن نقول : ان محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وانه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده ٠٠ ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرتـه الى ضرورة بغيضة ، يلجأ اليها ولا حيلة له في اجتنابها ، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة ٠

وقبل ذلك ينبغي أن نستحضر في الذهن بعض الحقائق التي تظهر لنا الاختلاف بين الدين الاسلامي والأديان الاخرى في مسألة القتال ، لنثبت أن للاسلام شأنا في اجتناب القوة كشأن كل دين ، وانه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن الى جانب ذلك صالحـا للانتصار ، وأن الأديان الاخرى ما كانت لتحجم (١) عن عمل أقدم عليه النبي لو كانت دعوتها كدعوته، وكانت أسبابه كأسبابه ٠

★ ★ ★

فالحقيقة الأولى ، أن مطعن القائلين بأن الاسلام دين قتال انما يصدق ــ لو صدق ــ في بداءة عهد الاسلام كما أسلفنا ، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل في سبيله سلاح ٠٠

١ ـ اي تكف ٠

لكن الواقع أن الاسلام في بداءة عهده كان هو المعتدى عليه • ولم يكن من قبله اعتداء على أحد •• وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية اجتماع القوم حول النبي عليه السلام ، فانهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »•

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أُمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا اكراه • وحروب النبي عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الايقان (١) من نكث (٢) العهد والاصرار على القتال ، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم •• ففي غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامي أدراجه (٣) بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى (٤) الى النبي نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية فلما عدلوا عدل الجيش الاسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره •

والحقيقة الثانية : أن الاسلام انما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والاقناع •

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف في طريقه ، وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للاصغاء اليه •

لأن السلطة تُزال بالسلطة ، ولا غنى في اخضاعها عن القوة•

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الاسلامية ، وانما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء ، وفي الأعقاب (٥) بعد الأسلاف (٦) •• وكل حجتهم التي يذودون (٧) بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه •

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها ، لأنهم

---

١ ـ التيقن والتأكد ٢ ـ نقض ٣ ـ من حيث اتى ٤ ـ أي انتقل اليه وبلغه ٥ ـ الخلف ٦ ـ الاباء المتقدمين ٧ ـ يدافعون •

أصحاب السلطة التي تأبى (١) العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق(٢) التي تصد الدعوة الاسلامية ، فيمتنع القتال ·

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لانجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب ·· ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي ، وتجربة روسيا في القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال في تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله في سائر البلاد ·

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة ·· ولا بد من التمييز بين العملين ، لأنهما جد مختلفين ·

★ ★ ★

والحقيقة الثالثة : أن الاسلام لم يحتكم الى السيف قط الا في الأحوال التي أجمعت شرائع الانسان على تحكيم السيف فيها ··

فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع ان لم تحتكم الى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين (٣) »·والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض (٤) الخلاف بينهم ان لم تفضه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء (٥) الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين (٦) ·

وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية

---

١ ـ ترفض ٢ ـ المعوقات ٣ ـ الاية ١٩٣ من سورة البقرة ٤ ـ تنهى ٥ ـ ترجع
٦ ـ الاية ٩ من سورة الحجرات ·

الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح ·· ثم يأتي الصلح والتوفيق أو يأتي التفاهم بالرضى والاختيار ·

★ ★ ★

والحقيقة الرابعة : أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لا بد من ملاحظتها عند البحث في هذا الموضوع ··

فاليهودية أو الاسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة في أبناء اسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس ·· فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها ، كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم فضلا عن امتشاق (١) الحسام (٢) لتعميم الدين اليهودي وادخال الأمم الاجنبية فيه ، ولا وجه اذن للمقارنة بين اليهودية والاسلام في هذا الاعتبار ··

أما المسيحية فهي قد عنيت « أولا » بالآداب والاخلاق ، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة ·

وقد ظهرت « ثانيا » في بلاد المعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان ، فهي قد عدلت عن فرض المعامـلات والدساتير لهـذه الضرورة ، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين ··

وقد ظهرت « ثالثا » في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول (٣) ، وليس للوطن الذي ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة في ميدان القتال · أما الاسلام فقد ظهر في وطن لا سيطرة للأجنبي عليه ، وكان ظهوره لاصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام ·· والا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية ·

فاذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية ، فذلك اختلاف موضعي طبيعي لا مناص (٤) منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه ·

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الاسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبهـا عن الأجانب المتغلبين ·· وأربت (٥) حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الاسلام مجتمعات ·

---

١ ـ المشق ، سرعة الطعن ٢ ـ السيف ٣ ـ قوة وقدرة ٤ ـ مفر ٥ ـ زادت ·

والحقيقة الخامسة : أن الاسلام شرع الجهاد ، وأن النبي عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » ٠

وجاء في القرآن الكريم : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا (١) » ٠

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح ٠ الا أن هذه الفتوح تأخرت في الزمن ، ولم يتم شيء منها قبل استقرار الدولة للاسلام ، فلا يمكن أن يقال أنها كانت وسيلة الاسلام للظهور ، وقد ظهر الاسلام قبلها ، وتمكن في أرضه ، واجتمعت له جنود تؤمن به ، وتقدم على الموت في سبيله ٠٠

ثم ان هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة ان لم تفرضها الدعوة الى دينها ٠٠ فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو اليه ، لوجب في ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس وفي أرض الروم ٠٠ ووجب أن يكف (٢) الشر الذي يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسري منهما الى حماه(٣) ٠

هذا الى أن الاسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب ٠

★ ★ ★

والحقيقة السادسة : أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل اسلامها وبعد اسلامها تدل على أن جانب الاسلام هو جانب الاقناع لمن أراد الاقناع ٠

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام ٠٠ واطمأن الناس

---

١ ـ الآية ٨٤ من سورة النساء ٢ ـ يمنع ٣ ـ ارضه ٠

على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه ·

فاذا قيل : ان المدعوين الى الاسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين، فلا ينفي هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين ·· ان الاسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار ، الى جانب قدرته على اكراه من يركب رأسه ، ويقف في طريق الاصلاح ·

ومن نظر الى الاقناع العقلي ، تساوى لديه من يستميلك الى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام ، أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون ، ومن يستميلك اليها بالخوف من الحاكم ·· على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة (١) من ذرائع نشر الاسلام ·

فالشاهد الذي تطعمه وتكسوه ليقول قولك في احدى القضايا كالشاهد الذي ينظر الى السوط في يديك فيقول ذلك القول ·· كلاهما لا يأخذ باقناع الدليل ولا بنفاذ (٢) الحجة ، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير ··

وصفوة ما تقدم أن الاسلام لم يوجب القتال الا حيث أوجبته جميع الشرائع ، وسوغته جميع الحقوق ، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ·· الا أن يحال بينها وبين انتضائه (٣) ، أو نبطل عندها الحاجة الى دعوة الغرباء الى أديانها ·· وأن الاسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه ··

القائد البصير

لم يكن الاسلام اذن دين قتال ، ولم يكن النبي رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب ، أو يطلبها وله مندوحة (٤) عنها ، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة ·· يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة . ويصيب في اختيار وقتـه وتسيير جيشه ، وترسيم خططه اصابـة التوفيق واصابـة الحساب واصابـة

---

١ ـ سببا ووسيلة ٢ ـ قوة وقطع ٣ ـ انقضى سيفه ، سله ٤ ـ سعة ·

الاستشارة ، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار (١) والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام ٠

وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي عليه السلام في ادارة المعارك الكبيرة ، فلم يأنف (٢) أن يستمع فيها الى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال الى غير المكان الذي نزل فيه ، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى ٠٠ فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من أساطين (٣) فن الحرب في العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحا ، أو ينبه الى خطأ ، لأعياه التعديل٠

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الاخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود ٠٠ لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية ، بالمضاهاة (٤) بينها وبين خطط هذا القائد العظيم ٠

١ ـ فنابليون كان يوجه همه الاول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع ، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع ٠٠ وانما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان ، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ اليها جلة (٥) القواد ٠

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور ٠٠ أن يختار الموقع الملائم له ، وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده ٠٠ وكان النبي عليه السلام سابقا الى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها ٠٠ فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان ،

---

١ ـ الشيء الذي لم يسبق اليه ٢ ـ يستنكف ٣ ـ المراد : الفذاذ وعباقرة
٤ ـ بالمشاكلة ٥ ـ اي معظم ٠

ولكنه اذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد (١) ما تواتيه الأحوال ، بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجدبون (٢) والقيظ ملتهب والشدة بالغة فلا يثنيه (٣) ذلك عن الخطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الاموال وجمع الرجال ، ولا يبالي ما أرجف (٤) به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه •

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها •• ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء ، واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين ، الا أن يكون الهجوم وبالا (٥) على المقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق •

٢ ـ وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد ••

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الايمان ، وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد في بعض المعارك ، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب الى جانب رجحانهم في عدد الجنود •• ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبي عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ،وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة •• فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون ، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان •

٣ ـ وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناول لها اقتداره •• فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل الى القارة الأوروبية . وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا الى طريق فرنسا ••

---

١ ـ اي قدر ٢ ـ الجدب : ضد الخصب ، والمراد : القحط ٣ ـ اي يرده ٤ ـ ارجفوا في الشيء : خاضوا فيه ٥ ـ هلاكا •

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشا في تجارتها ، ويبعث السرايا في آثر القوافل كلما سمع بقافلة منها •

وأنكر بعض المتعصبين من كتَّاب آوروبا هـذه السرايا ، وسموها « قطعا للطريق » . وهي هي سنة المصادرة بعينها التي أقرها « القانون الدولي » وعمل بها قادة الجيوش في جميـع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيدا تارة وغاليا (١) في الحمق والشطط (٢) تارة أخرى ••

٤ ـ وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه الى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة •

ونرجع الى غزوات النبي عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، آو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة ، كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف •

٥ ـ وكان نابليون معتدا برأيه في الفنون العسكرية ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغني عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال • ومحمد عليـه السلام كـان على رجاحة (٣) رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبـول ، ومـن ذلك مـا صنعه ببدر ـ وألمعنا (٤) اليه آنفا ـ حين أشار عليـه الحباب ابن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ثم بتعوير (٥) الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الاعداء ، وقيل في روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة ، فحفـر الخندق وعمل النبي بيديه الكريمتين في حفره •

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة، وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام

---

١ ـ من المغالاة وهي مجاوزة الحد ٢ ـ الشطط : مجاوزة القدر في كل شيء ٣ ـ اي قوته وسداده ٤ ـ المراد : أشرنا ٥ ـ لعل المراد : طمسها •

كان خليقا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في ابان الهجمة عليها ، لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات الى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته ، وفي وقعة أُحد جعل الجبل الى ظهره وأقام على الشُعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم في التزام موقفهم ، قائلا لهم : « احموا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وان رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل » ٠

والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق اليه النبي وما نبغ فيه نابليون،فهذه خصلة معهودةفي كبار القواد لا تقدح (١) فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب ٠

٦ ــ ولم يُعرف عن قائد حديث أنه كان يُعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون ٠

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال،فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر ، لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء (٢) ، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم ، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج اليه ٠ وكان صلوات الله عليه انما يعول (٣) في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجه (٤) ودروبه (٥) ، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع ٠

٧ ــ واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة

---

١ ــ لا تطعن ولا تؤثر ٢ ــ الكذب والتمويه ٣ ــ يستعين ٤ ــ الفج : الطريق الواسع بين جبلين ٥ ــ الدروب : باب السكة الواسع ٠

والأقلام ، وكان يقول : انه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام ..

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة (١) التي عاهدوا عليها ، ويشهرون به وبالاسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون (٢) في هجوه (٣) وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم ..

★ ★ ★

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتّاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزي كولردج الذي كان يخوض في ذمّه ويستهوي الأسماع بسحر حديثه .

الا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الاسلام انما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك ، أو بين الالهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع في هذا الميدان .

فليس في حالة سلم مع النبي اذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطعن في لباب (٤) رسالته الاسلامية ، وان لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده ، وانما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح في وجهه ، أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد (٥) دين ، ولا كان للرسول الاسلامي من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه في دينه وان لم يشهروا

---

١ ـ ينقضون العهد ويغدرون ٢ ـ اقذعه : رماه بالفحش وشتمه ٣ ـ ذمه ٤ ـ لب الشيء ولبابه : خالصه ٥ ـ التفنيد : اللوم وتضعيف الرأي .

السيف في وجهه ، فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه ٠

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق اليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح ٠

لم يتخذ محمد الحرب صناعة ، ولا عمد اليها كما أسلفنا الا لدفع غارة واتقاء عداوة ، فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه ، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها ؛ اذ ترعرع الى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء ٠ ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال ، فكانت طريقته في اختيار المكان والغرض أو في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلا يحتذى (١) في جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع (٢) التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة ، فكثرت فيه — من ثم — حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال الأعداء ٠

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض ، الى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات ٠ ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعثة ، ورجاله جميعا يجهلونه ، ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع ، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهنالك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ، ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو اذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار ٠٠

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة ٠٠ فقد عرفت في

---

١ — يقتدى به ٢ — وسائل ٠

المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن « سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » ٠

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص ٠

فأولهما كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا (١) عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنّة حكيمة من سنن النبي عليه السلام في جميع المطالب ، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن (٢) باتباع ٠٠ ولهذا كان اذا أراد غزوة ورى (٣) بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب الى الآن ٠

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصايته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام ٠

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا ، أو يتلقاها على غير اكتراث (٤) ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه ٠

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة ، حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه ٠

وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين ٠٠

---

١ ـ متجسسا ٢ ـ اجدر ٣ ـ وراه توريه ، اخفاه ٤ ـ اي اهتمام ٠

فقد عُرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف ، فيتسللـون الى مراكـز المواصلات ويعيثون (١) بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد ٠٠ قيل في الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبيه الى خطرها كثير ٠

فمن دواعي الاعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وانها شيء جديد في شكله وان لم يكن جديدا في غايته ومرماه ٠

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية ، فهي تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه ، فليس أيسر له اذا هو انفرد وأعوزته (٢) الرغبة في انجاز عمله من أن يستأسر (٣) في أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء، طلبا للسلامة، ولا عقاب عليه الى نهاية القتال ٠ ثم يتعلل بما شاء من المعاذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبـه ، وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات ٠

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهي لهذا أحرى أن تحسب من وحي اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة (٤) البغضاء ويلبهونهم بحماسة العقيدة ، ويخلقون فيهم اللدد (٥) الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ ، لحبطت (٦) الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب ٠

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط الرغبة

---

١ ـ يفسدون ويخربون ٢ ـ اعوزه الشيء : اذا احتاج اليه فلم يقدر عليه ٣ ـ اي يفضل الاسر ويطلبه ٤ ـ الجذوة ، الجمرة ٥ ـ شدة الخصومة ٦ ـ بطلت وفشلت ٠

والطواعية واجتناب القسر (١) والاكراه • فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاكراه الفعال بين رجالها اذا أريد ••

وهي « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقسور (٢) ، وألزم ما يلزم العامل فيها ايمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته (٣) هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء •

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبي عليه السلام عليما بمزاياه ، معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون، في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه •

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حين أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم•

فمن أسباب هزيمة نابليون : اهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع •

ومن أسباب تلك الهزيمة : أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارا (٤) يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه•

أما هتلر فقد أُتي من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز (٥) والأناة (٦) • فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم ••

واشتهر أنه أخطأ في استطلاع أخبار القوم ، اذ خيل اليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ، ويترقب الاغارة عليه لنصرة

---

١ ـ الجبر ٢ ـ المجبر ٣ ـ اي فقدها في نفسه ٤ ـ احدا في دار ٥ ـ التوقي ٦ ـ عدم التسرع •

المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي ، وهو عنصر الجرمان ·

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطيء قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه ،ولعلنا نفهم ــ كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية ــ أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين ·

وينبغي ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفي كل ما فيها من الشئون العسكرية ، لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من جوانب السنة النبوية والتشريع الاسلامي في هذه الشئون ·· فهي سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه · لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضل فأسرتهما قريش ، وهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ··

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي ، آخر شهر رجب · وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من في السرية ، فتشاوروا في قتال أهل العير ، وحاروا فيما يصنعون : ان تركوا العير تمضي ليلتها امتنعت بالحرم ، وفاتهم تعويض ما حجزته قريش في هذه الفرصة السانحة (١) ، وان قاتلوا أهلها قتلوهم في شهر حرام ، لكنهم اندفعوا الى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فأرداه (٢) وأسروا رجلين · وقفل عبد الله بن جحش ومن معه الى المدينة وقد حجزوا للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، وعنفهم اخوانهم لمخالفة النبي ، وساءت لقياهم بين أهل المدينة ·

وراحت قريش تثير ثائرة العرب ، واندس جماعة من اليهود يحضأون (٣) نار الفتنة ، وتنادوا أن محمدا وأصحابه قد أباحوا الدماء والاموال في الشهر الحرام ، وقال المسلمون في مكة : بل كان ذلك في شعبان ، ثم نزلت الآيات : « يسألونك عن الشهر

---

١ ـ العارضة ٢ ـ فقتله ٣ ـ يوقدون ·

الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (١) ٠

فقبض النبي العير والأسيرين . وطلبت قريش فداءهما فقال عليه السلام : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فأنا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم » ٠

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافا لأمر النبي وما نجم (٢) عنها من تشريع ٠٠ فاذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها ؟ وكيف نفهمها ؟٠٠ هي لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود :

ترسل احدى الدول طليعة من جندها الى حدودها للكشف أو للحراسة ، فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة في بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين ٠

فالذي يحدث في هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية لا تستوجب القتال ، وتكتفي بما ينال المسئولين على أيدي حكومتهم من جزاء أو تأنيب ، وينحسم(٣)النزاع ٠ هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب الترضية ، فان قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم ، وان لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام (٤) ٠٠

ذلك اذا نظر الفريقان الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعاها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذي تجريان عليه فيها وفي أمثالها ، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول ٠

وقريش لم تكتف بالنظر الى حادثة السرية (٥) كأنها حادثة

---

١ ـ الاية : ٢١٧ من سورة البقرة ٢ ـ نجم الشيء ظهر وطلع ٣ ـ ينقطع ٤ ـ السيف القاطع ٥ ـ قطعة من الجيش ٠

فردية عرضية ، ولم تعلن الحرب توا (١) لأنها تبيت النية لاعلانها بعد حين •• ولكنها أثارت مسألة تشريع عام في قتال الشهر الحرام ، فوجب أن ينص الاسلام على هذا التشريع صريحا لا لبس فيه ، وهذا الذي كان •

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبي ، فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه •

انما المسألة هي : ما الحكم بعد الآن في قتال الأشهر الحرم ؟• وماذا يبلغ من حق المشركين في الاحتماء بحرمة هذه الأشهر اذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا ؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمات التي لا ترعاها ؟••

هذا هو الحكم الذي وجب أن يعلنه الاسلام ، وقد أعلنه على الوجه الذي دانت به الشرائع الحديثة في علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم ، فهناك حرمات دولية اذا خالفتها احدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها ، أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة ، والا كانت الحرمات درعا (٢) للمعتدين ولم تكن مانعا لهم وسدا في وجوههم كما أريد بها أن تكون •

★ ★ ★

واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين في حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى ، وأن تأسر الذين في بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضمانا لسداد المغارم التي تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، في سجون الدولة الأخرى •

فالذي حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه ، وهو حكم القانون الدولي المتفق عليه : أسيران بأسيرين ، وأموال العير بالأموال التي حجزتها قريش للمسلمين • ولا محل لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين في تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبي والاسلام فيه • فان أصحاب هذه

---

١ - في الحال ٢ - اي وقاية •

الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في آمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي ونزل به القرآن ، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يدانون ، ويحار المعتسف (١) لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى الى النفاذ والاتباع ·

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيرا كذلك بتجنيد كل قوة في يديه متى وجب القتال ان قوة رأي ، وان قوة لسان ، وان قوة نفوذ ، فما نعرف آن أحدا وجه قوة الدعوة توجيها أسد (٢) ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام ·

غرضـــان

والدعوة في الحرب لها ــ كما لا يخفى ــ غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة ·· أحدهما : اقناع خصمك والناس بحقك ، وهذا قد تكفل به القرآن والحديث ودعــاة الاسلام جميعا ، فالدين كله دعوة من هذا القبيل ·

وثانيهما : اضعافه عــن قتالك باضعاف عزمــه وايقاع الشتات (٣) بين صفوفه ·· وربما بلغ النبي برجل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين وبذر الأموال ·

قال ابن اسحق ما ننقله ببعض تصرف : « ان نعيم بن مسعود الغطفاني أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، اني قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي ·· فمرني بما شئت ··

فقال رسول الله : انما أنت فينا رجل واحد فخذل (٤) عنا ان استطعت فان الحرب خدعة ··· أي أدخــل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا ·

« فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ــ وكان لهم نديما في الجاهلية ــ فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي اياكم وخاصة ما بيني وبينكم ·· قالوا : صدقت ·لست عندنا بمتهم·

---

١ ــ القائل بغير هدى فعدل عن الحق ٢ ــ امر سديد واسد ، اي قاصد ٣ ــ الفرقة
٤ ــ اي اضرب تعاونهــم وتناصرهم ·

« فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ·· البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم (١) عليه ·· وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ·· فليسوا كأنتم !·· فان رأوا نهزة (٢) أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه (٣) ··

« فقالوا له : لقد أشرت بالرأي ·

« ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا ، وانه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقا أن أبلغكموه نصحا لكم ·· فاكتموا عني ! قالوا : نفعل ·

« قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم (٤) ؟·· فأرسل اليهم أن نعم ·· فان بعثت اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا ·

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، انكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس الي ولا أراكم تتهمونني ، قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ·

« قال : فاكتموا عني ·

« قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟··

« فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم ·

« فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان ابن حرب ورؤوس غطفان الى بني قريظة عكرمة بن أبي

---

١ ـ اي ساندتموهم واعنتموهم ٢ ـ فرصة ٣ ـ نجز الشيء انقضى وفنى ٤ ـ اي نقتلهم عن اخرهم ·

جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر •• فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا اليهم : ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بمقاتلي محمد حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فانا نخشى ان ضرستكم (١) الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا (٢) الى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه •

« فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا الى بني قريظة : انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا •

« وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم الا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم •

« ••• وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم ثم رحلت قريش وغطفان الى بلادها ، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعا الى المدينة » هذه دعوة نعيم بن مسعود ••

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التي تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة •• فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهي الكلمة التي ينبغي آن تقال في الوقت الذي ينبغي أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هي دعوة الاضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون •

قائد بغير نظير

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمدارك العصرية، ينبغي أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر الى ظواهر المعارك

---

١ ـ المراد : قست واشتدت عليكم ٢ ـ اي كفروا مسرعين •

أو الى أشكالها وأحجامها ، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق اذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وان حربا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة ، وان نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وان المدفع أمضى (١) من السيف ، والرصاصة أمضى من السهم • فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر تنتهي الى نتيجة واحدة •• هي استضخام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير الى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة • لكننا اذا نظرنا الى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون •• بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة •

★ ★ ★

وهذه الفكرة هي التي ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه ، وفي الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام •

وهذه القدرة هي شهادة كبرى لرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال ••

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه (٢) ، فذلك هو الرسول الذي تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ الى هذه القيادة الا حين توجبها رسالة الهداية •

ويزيد هذه الشهادة عظما أن الرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب ••

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال ••

---

١ – انفذ ٢ – لا مهرب ولا مفر منه •

ان بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام ، لانه عمل أقرب الى خلقه من الخوض في معمعة القتال ·· وكأنهم أرادوا انه لم يكن قادرا على المشاركة في المعمعة بغير ذلك ·· فهـذا خطأ في الاحاطـة بمزايا هذه النفس العظيمة التي تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والاقدام ··

فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم(١) نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان علي فارس الفرسان يقول : « كنا اذا حمي البأس (٢) اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ·· فما يكون أحد أقرب منه الى العدو » ·

★ ★ ★

ولولا ثباته في وقعة حنين ، وقد ولت (٣) جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين،لحقت الهزيمة على المسلمين ·· وخروجه والليل لما يسفر (٤) عن صبحـه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء ·· لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير في داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه (٥) خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره ·

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفي نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيمـا يستهدفون له ، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود ·

واذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هياب لمخاوفها ثم اكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه (٦) ·· فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية ، وتأتي جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول ·

١ ـ تشتعل ٢ ـ اي اتقدت الشدة ٣ ـ فرت ٤ ـ يكشف ٥ ـ يرده عن قصـده
٦ ـ لا مفر ومهرب منـه ·

خصائص العظمة

لكن للعظمة خصائص تدعو الى العجب ، وان كانت معروفة الأسباب ·· وناهيك (١) بالعظمة التي ترتقي هذا المرتقى ·

فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين في وقت واحد ·· لأنها متعددة الجوانب ، فيراها أناس على صورة ، ويراها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين ··

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة (٢) من هنا وللمغالاة من هناك ·· ولأنها عميقة الأغوار (٣) فلا يسهل استبطانها (٤) لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر ·

وهذا اذا سلمت النفوس من سوء النية ·· فأما اذا ساءت النيات وران (٥) الهوى على البصائر فلا عجب اذن في الضلال ·

★ ★ ★

ومن خصائص العظمة النبوية في محمد عليه السلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه ·· فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ، وهو عند اناس آخرين صاحب قسوة نضرية (٦) بالقتل واهدار الدماء البشرية في غير جريرة (٧) ، وتنزه محمد عن هذا وذاك ··

فاذا كانت شجاعته عليه السلام تنفي الشبهة في رقة الضعف والخوف المعيب ، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفي الشبهة في القسوة والجفاء ·· اذ كان في كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التي عز نظيرها في الأنبياء ·

ولا نقف كثيرا عند الحوادث التي ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على اهدار الدماء في غير جريرة · فأكثرها لم يثبت قط ثبوتا يقطع الشك فيه ، ولا سيما القول بتحريض النبي عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو

---

١ ـ ناهيات منه ، بمعنى حسب ٢ ـ تجاوز الحد ٣ ـ غور كل شيء ، قعره
٤ ـ بطن الاسر ، عرف باطنه ٥ ـ غلب ٦ ـ تغريه ٧ ـ جناية وذنب ·

الاسلام والمسلمين ، فان النبي عليه السلام قد نهى في قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه في غير موضع ، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وان خرجت للقتال ، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها ٠

والحادث الوحيد الذي يستحق الالتفات اليه هو مقتل كعب ابن الأشرف الذي كان يهجو المسلمين ، ويقدح (١) في دينهم ، ويؤلب عليهم الأعداء . ويأتمر (٢) بقتل النبي ، ويدخل في كل دسيسة تنقض معالم الاسلام ٠٠ وكان مع قومه بني النضير معاهدا على أن يحالف المسلمين ، ويحارب من يحاربونهم ، ولا يخرج لقتالهم ، ولا يقابلهم الا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونة ٠

فنقض العهد وزاد على نقضه تأليب العرب مع قومه على النبي وصحبه ، وانه رجع الى المدينة « فشبب (٣) بنساء المسلمين حتى آذاهم » وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف، وليس يرضاه في عرضه عربي غيور ٠٠

★ ★ ★

ورد في حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا الى حصنه ، فهتف به أبو نائلة ـ وكان حديث عهد بعرس ـ فوثب في ملحفته ٠٠٠ فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : « انك امرؤ محارب ، وأن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ! » ٠

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد حنثوا (٤) في ايمانهم ، فلم يكن راعيا لعهده ، ولم يكن له وازع من نفسه ولا من قومه ، ولم يكن مأمونا على المسلمين وهو لائذ (٥) بحصنه ٠٠ فهو أقل الناس حقا في أمان٠

وجاء في الخبر أن النبي عليه السلام أقر مقتله ، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك ، وحسبوه خروجا على سنن القتال ، يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجان

١ ـ يطعن ويعيب ٢ ـ يهم به ويتشاور فيه ٣ ـ قال فيهن غزلا مكشوفا ٤ ـ الحنث: الخلف في اليمين ٥ ـ لاذ به : لجأ اليه ٠

ومحاكمته بغير حق ٠٠ مع ما بين الحادثين من بون (١) بعيد بيناه من قبل فلا نعود اليه ٠٠

الا أننا نوجز هنا ، فلا نزيد على أن نشير الى حكم القانون الدولي في أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف ، وان لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد والاساءة الى الأعراض ٠ وذلك هو حكم الأسير الذي ينطق بعهد الشرف ألا يعود الى القتال ، فان القانون الدولي يوجب عليه أن يوفي بعهده ويوجب على حكومته ألا تندبه الى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه ، ويقضي بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب اذا شهر السلاح على الذين أطلقوه ، أو على حلفائهم المحاربين في صفوفهم ، ويصبح اذن أن يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضى عليه بالموت ٠

فقوانين العصر الحديث اذن تعاقب بالموت جريمة آهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير ، لأنه تجاوز الغدر الى التأليب والائتمار وثلب (٢) الأعراض ٠ وليس في توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ، لأن المرجع فيها الى الضرورة التي أوجبت القصاص وفرضته على الناس في أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلا عن أحوال القتال بين الأعداء ٠

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر ، وخروج النبي الى ساحة الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها ٠٠ فهو أمر لا يصح الحكم فيه الا بالنظر الى موضعه وموقعه وأشخاصه ، لأنه ليس بالحكم العام الذي اتبعه الاسلام في جميع الأسرى وجميع الحروب وانما هي حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم في غير مبالاة ولا نخوة ٠ وليست هي كحالة الأسرى الذين يقعون في أيدي أعدائهم غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند الذين يحشدهم الاعداء ٠ فقتل الأسرى بعد بدر ان هو الا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب ، وقد

---

١ ـ مسافة ما بين الشيئين ٢ ـ صرح بالعيب فيها ٠

وقعوا في أيدي من يتولى عقابهم من الغالبين • جاز هذا في كل قانون ، وجاز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التي ليست هي من فروض القتال أو من مباحاته في شيء •• وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه في شأنه أنه جندي لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح ، وليس في عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف•

أما رؤية القتلى في ساحة الحرب ، فقد نسي فيها أولئك الناقدون أن اغتباط (١) المنتصر بفوزه طبيعة انسانية لا غضاضة (٢) فيها •• ما لم تجاوز حدها الى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء • وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي المعركة عن النبي عليه السلام ، ولا نم عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين •

★ ★ ★

ونسي أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذي يرى الدم في المدنية العصرية ، غير الرجل الذي يرى الدم في حروب البادية وفي حياة البادية على الاجمال •• ونعني بها حياة الرعاة التي تتكرر فيها اراقة الدم كل يوم ، وحياة القبائل التي كانت تغزو وتُغزى في كثير من الأيام ••

فانك لا ترمي بالقسوة طبيبا قد ألف النظر الى الجثث وأشلائها والأجسام الحية وجراحها •• لأن الطب لن يكون في الدنيا رحمة من الرحمات ان لم يألف الاطباء هذه المناظر ويملكوا جأشهم (٣) وهم يفتحون أعينهم عليها • ولكنك قد ترمي بالقسوة انسانا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هي تفاجئه فلا ينفر منها وما من رجل عاش في البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه ان ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه . أو بما يستلزم النظر اليه قسوة في الطباع واستراحة الى رؤية الدماء •

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا ، لينظروا بعين النبي الى عواقب هذه الوقعة التي أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة في تاريخ الاسلام ••

---

١ ـ سرور ٢ ـ ذلة ومنقصة ٣ ـ روع القلب اذا اضطرب عند الفزع •

كان عليهم أن ينظروا هنـالك بعين النبي الى جيشين ·· أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر في ثلث من يقاتلونه عددا ، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الاقدام ·· وكان عليهم أن يلمسوا اشفاق النبي من عاقبة هذه الوقعة ، ويستمعوا اليه وهو يناشد ربه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلها وخيلائها (١) تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني··اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد ··· » ·

وكان عليهم أن ينظروا اليه ، وقـد مد يديه وشخص (٢) ببصره ، وجمع نفسه في صلاته ·· حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه (٣) وأبو بكر يرده ويناديه : « بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك ·· وهو لا يلتفت الى سقوط ردائه ولا الى مناداة صفيه ، لاستغراقه في الدعاء ·· » ·

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالا منهم يرجعون الى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة(٤) النبي ، واعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد ، وليس الصبر عليه بيسير ··

★ ★ ★

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وانه شعور مطبوع في نفس حيَّة تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال ، فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق في ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر ، وتخرج من الضيق الى الفرج ، وتنظر في ساحة الحرب الى من قضى فيها من قريش ومن عـاد منهـا الى وكره ليعيـد الكرة ويستأنف الايذاء والمكيدة ، وأن ترى ما هي تلك الأسلاب (٥) والغنائم التي أوشكت أن تفتن بعض المقاتلين ، لأنها أول شيء شهدوه من نوعه ، ولما يتنزل حكم الدين في سلب أو غنيمة ·

ان محمدا رجل حي جياش النفس بدوافع الحياة ، وليس بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يكبون في جوانحهم(٦)

---

١ ـ اي كبريائها ٢ ـ فتح عينيه وجعل لا يطرف ٣ ـ المنكب : مجمع عظم العضد والكتف ٤ ـ معاداة ٥ ـ ما سلب في ساحة الحرب من الاعداء ٦ ـ الجوانح : الاضلاع التي تحت الترائب وهي مما يلي الصدر ، والمراد : القلوب ·

كل دافعة وكل احساس ٠٠ فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف ، وستلحق بها كل تلك العواقب ، أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقفه ، ولم تكن توجيه الفطرة الانسانية على المقاتل ٠٠ وهو في اللحظة الأولى بعد الظفر خليق (١) أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ،ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة ، ليقيس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات ، وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف ، يجدون من واجبهم آلا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين ، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ، ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب ، فانصراف محمد عن ساحة بدر على أثر النصر عمل غريب يخل بمكانة القائد ، وبواجب التحقيق ، والاستفادة من كل ما يفيد ٠

بعد معركة الأحزاب :

ونحن في صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصي ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ في هذا الباب ، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بني قريظة بعد معركة الأحزاب ٠٠ فان أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفا للعرف المتبع في الحروب ، وينسون أمورا لا يصدق الحكم في هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار ،وهي أن بني قريظة حنثوا في أيمانهم مرات فلا يجدي معهم أخذ المواثيق (٢) من جديد ، وانهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه،وان سعدا انما دانهم بنص التوراة الذي يؤمنون به كما جاء في التثنية : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فان أجابتك الى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف،وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل

---

١ ـ جدير ؟ ـ لعهود ٠

غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك ٠٠ » (اصحاح ١٠ الى ١٥ تثنية) ٠

وينبغي أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا : ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب ؟

فالقضاء الذي قضاه النبي في بني قريظة عدل وحكمة وصواب وما من أحد يقضي غير ذلك القضاء ، وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها ، ومن لددهم (١) في خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر في التربص والوثبة بعد الوثبة عليها ٠

وان حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم مسلحون على قوم عزل يذودون (٢) عن أوطانهم وحقوقهم، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له في عقاب بني قريظة ، ولا في جميع الحروب التي نشبت بين النبي عليه السلام وبين أعداء له ولدينه ، هم المتفوقون عليه في العدد والثروة والسلاح ٠

ان عبقرية محمد في قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب ، وترضاها المروءة ، وترضاها شريعة الله والناس ، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء ٠

---

١ - شدتهم في الخصومة ٢ - يدافعون ٠

عبقرية محمد السياسية

سياسة الخصوم والأتباع

السياسة على معان كثيرة في العرف الحديث ..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية ، ومنها ما يكون بين الراعي ورعيته ، أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات ، ولكل معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث ، وان جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية .

وقد تولى النبي عليه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله .. ولكننا لا نعرف بينها عملا واحدا هو أدخل في أبواب السياسة ، وأجمع لضروبها ، وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلني ، أو سائر الصفات التي اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية في مراحله جميعا ، منذ ابتدأ بالدعوة الى الحج الى أن انتهى بنقض الميثاق (١) على أيدي قريش .

ففي عهد الحديبية تجلى (٢) تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود .

بدأ بالدعوة الى الحج ، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي اليه ، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها ، وفصل بذلك بين

---

١ ـ العهد ٢ ـ ظهر .

دعواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من اثارة نخوة (١) العرب وتوجيهها الى مناوأة (٢) محمد والرسالة الاسلامية ، فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم اذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم ، فاذا خالفوا قريشا في شيء ، فذلك شأن قريش وحدهم ، أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو بشأن القبائل أجمعين .

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام ، بما ادعوا من قطعه للأرزاق ، وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون (٣) الى مكة والرائحون (٤) منها .. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام ، فاذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون اليه ، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه .. ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين .

وقد سمعنا كثيرا في العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التي تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة .. سمعنا بها في الحركة الهندية التي قام على رأسها غاندي وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر في ازعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية .. وقيل يومئذ ، ان غاندي قد تتلمذ في هذه الحركة على المصلح الروسي الكبير ليون تولستوي .. وقيل ، بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التي تحرم ايذاء الحيوان فضلا عن الانسان ، قبل أن يشرع ليون تولستوي مذهبه الجديد .

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندي وتبشيره بتلك المقاومة السلبية ، لاعتقادهم أن الاسلام قد شرع للقتال فلا يوائم (٥)

---

١ ـ النخوة : الفخر والكبرياء والعظمة ٢ ـ معاداة ٣ ـ القادمون ٤ ـ الخارجون ٥ ـ يوافق .

المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين ، من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة • لكن المثل الذي قدمه النبي صلوات الله عليه في رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ، ويبين لهم أن الاسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه •• فلا هو يركن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده ، بل يضع كليهما حيث يوضع ، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع ، وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار ، وليس الآلة التي يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار •

★ ★ ★

وقد خرج النبي الى مكة في رحلة الحديبية حاجا لا غازيا •• يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح ، الا ما يؤذن به لغير المقاتلين •

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب •• بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش ، وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك في دفعه أو قبوله أو مهادنته (١) ، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد ،وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين •

ولما اتفق الطرفان ــ المسلمون وقريش ــ على التعاهد والتهادن ، كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة « الدبلوماسية » كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين •

دعا بعلي بن أبي طالب فقال له : «بسم الله الرحمن الرحيم»

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : « أمسك (٢) ! لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم » •

فقال النبي : « اكتب باسمك اللهم » •

ثم قال : « اكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو) » •

---

١ ــ مصالحته ٢ ــ أمسك عن الكلام : سكت •

فقال سهيل : « أمسك ! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك » .

وروي أن عليا تردد فمسح النبي ما كتب بيده ، وأمره أن يكتب « محمد بن عبد الله في موضع محمد رسول الله » .

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ، وانه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح (١) عليه .. ومن أحب محالفة (٢) قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا اليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا سلاح غيرها .

★ ★ ★

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون ، لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب .. فيعترف المشركون كرها أو طوعا بصفة النبوة ، ولا يردون أحدا من مواليهم أو قاصريهم يذهب الى النبي ويلحق بالمسلمين .. ولكنه عهد مهادنة أو عهد « ايقاف أعمال العداء الى حين » كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر .. فلا يعوزه (٣) شيء من الاصول المرعية في أمثال هذه العهود ، من اثبات صفة المندوبين التي لا ارغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين،ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواه واستئناف مسعاه . فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد اليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين .. فان المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا في دينها وهي أولى به من نبي الاسلام ..

أما المسلم الذي يرد الى المشركين مكرما فانما الصلة بينه وبين النبي الاسلام ، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب .. فان كان الرجل ضعيف

---

١ ـ جناح : اثم ٢ ـ الدخول في عهدهم ٣ ـ فلا يفتقر الى شيء .

الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وان كان وثيق (١) الدين فبقي على دينه فلا خسارة على المسلمين ·

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسبته غنما (٢) لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه ·· فان المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهده ، قد خرجوا الى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين فلا استطاع المشركون أن يشكوهم الى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضي العهد بولاية النبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه ·

★ ★ ★

وتم العهد ·· فعرف من لم يعرف ما أفاء (٣) على الاسلام بعد قليل ·· فجهر بمحالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه ·· واستراح النبي من قريش ، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الأبواب لمن يفدون اليه ممن أنكروا بغي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للاسلام حربا يبتلون فيها بما لا يطيقون ·

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما »(٤) لم يفقه الكثيرون معناها في حينها ، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض (٥) تسليم ·· ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين ، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف ، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون، ولا يحسنون النظر الى بعيد·

الفتح المبين

كان في تلك السنة فتح ، يراه الناظر بعين الغيب ، ولا يراه

١ ـ قوي ٢ ـ كسبا ٣ ـ أي رجع وعاد ٤ ـ الاية : ١ ، ٢ من سورة الفتح ٥ ـ خالص

الناظر بعينه ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون بغير العيون •• رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر اليه ، فسر قوما وساء آخرين •

ففي السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فخرجوا في شوق المنطلق بعد منع ، والمنتظر بعد صبر ، الا من استشهد في خيبر وأدركته الوفاة خلال العام ، وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال،وساقوا أمامهم ستين بدنة(١) مقلدات (٢) للهدى ، وقد حملوا السلاح والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة ••

★ ★ ★

فلما انتهى الرسول وصحبه الى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، وعلمت قريش بالنبأ ، ففزعوا وبعثوا بمكرز بن حفص في نفر منهم ، فجاءوا يقولون : « والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر •• تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل الا بسلاح المسافر : السيوف في القرب ؟ » فقال عليه السلام : « اني لا أدخل عليهم بسلاح » قال مكرز : « هو الذي تعرف به : البر والوفاء » •

وانما حمل النبي السلاح للحيطة كما قال لصحبه : « ان هاجنا (٣) هائج من القوم كان السلاح قريبا منا » •• وتركه في الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل اليه عند الحاجة اليه •

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون ، وأخذ عبد الله ابن رواحة بزمام القصواء وهو ينشد :

خلوا بني الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب اني مؤمن بقيله   اني رأيت الحق في قبوله

وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح في قريش صيحة الحرب، فنهاه عمر رضي الله عنه وأمر النبي أن ينادي ولا يزيد : « لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب

---

١ ـ ناقة او بقرة سمينة ٢ ـ تقليد البدنة : ان يعلق في عنقها شيء ليعلم انها هدي ٣ ـ المراد : أثارنا •

وحده » • فرفع ابن رواحة بها صوته الجهير ، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادي القريب ، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا ركب النبي يخطو في نواحيها •

★ ★ ★

وكان الفتح الذي بصر به عيانا من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة ، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيا على الاسلام : فريق منهم بهرهم وفاء النبي بعهده مع استطاعة نقضه وفريق منهم راعهم سمت (١) الديـن ورحم الاسلام فيما بين المسلمين ، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين ،وفريق منهم علموا أن العاقبة للاسلام فجنحوا (٢) الى طريق السلامة والسلام ، وحسبك (٣) ان عمرة القضاء هذه قـد جمعت في آثارها من أسباب الاقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وهما في رجاحة الخلق والعقل مثلان متكافئان ، وان كانا لا يتشابهان ••

وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور ، كما تجلت في قيادة الجيوش ، فكان على أحسن نجاح في سياسته اذ نـادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته ، واذ دعا المسلمين وغير المسلمين الى مصاحبته في رحلته ، واذ توخى (٤) ما توخى من طريقة المسالمة واقامة الحجة في انفاذ عزيمته ، واذ قبل العهد الذي كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته (٥) ، واذ نظر الى عقباه ، ووصل به الى القصد الذي توخاه •

---

١ ـ السمت : الطريق ٢ ـ مالوا ٣ ـ يكفيك ٤ ـ تحرى وقصد ٥ ـ عترة الرجل : نسلـه ورهطـه الادنـون •

ملكات شخصية

في الاسلام أحكام كثيرة مما يدخل في تصرف رجال الادارة كما نسميهم اليوم ·· وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات ، كالمساناة(١) والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدي بها المشترعون في جميع العصور ·

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرد أحكام الفقه ، ونبسط وصايا الدين ، فهـي مشروحـة في مواطنها لمـن شاء الرجوع اليها ، وانما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه مـن حيث هي ملكات شخصية وسلائق (٢) نفسية ، تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين ، أو مؤديا لغير الرسالة من سائر أعمـال الانسان ·

كذلك لا يعنينا مثلا أن نتكلم عن « الادارة » كأنها نصوص المنشورات و « اللوائح » التي تدار بها الدواوين ، وتجري عليها تفصيلات الحركة في مكاتب الحكومة ، فان هذه وما اليها هـي أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين ، وانما نعني الملكة الادارية من حيث هي أساس في التفكير : من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الادارة كلها على أسس قويمة ، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير (٣) والأوراق ·

فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة(٤) أن يؤسس ادارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة · أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهـي السليقة التي تعرف النظام، وتعرف التبعة ، وتعرف الاختصاص بالعمل ، فلا تسنده الى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم علـى هواه · وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما تكون : كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج الى تدبير · ومن حديثـه المأثور : « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا (٥) أحدهم » · ومن أعماله المأثورة : انه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة

---

١ ـ من قولك : استأجرته مساناة ٢ ـ طبائع وقطرة ٣ ـ جمع اضبارة وهـي : الحزمة من الصحف ٤ ـ المسئولية · ٥ ـ أي يجعلوه رئيسا ·

للخليفة اذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة ، وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان همـا جماع الشروط في كـل رئاسة ، وهما الكفاءة والحب : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم : أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » • و « أيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز (١) صلاته أذنيه » •

وكان الى عنايته باسناد الأمر الى المدير القادر عليه ،حريصا على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر ،على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها (٢) وهي مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » •

وقد كانت أوامر الاسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدا يدعي لنفسه حقا في اقامة الحدود ، واكراه الناس على طاعة الأوامر ، واجتناب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس •

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلا من المشركين غضب عليه السلام ، وقال فيما قال من حديثه المبين : « •• فمن قال لكم ان رسول الله قد قاتل فيها فقولوا : ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة ••• » • ولما أراد أن يصادر الخمر ، نهج في ذلك منهجا يقصد به الى التعليم والاستنان كما جاء في رواية ابن عمر حيث قال :

« أمرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آتيه بمدية ، فأتيته بها ، فأرسل بها فأرهفت (٣) ثم أعطانيها فقال أغد علي بها • ففعلت ، فخرج بأصحابه الى أسواق المدينة وفيها زقاق(٤) الخمر قد جلبت من الشام • فأخذ المدية (٥) مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر الذين كانوا معه أن

١ ـ تتخطى ٢ ـ زوجها ٣ ـ اي رقق حدها ٤ ـ الزق السقاء •

يمضوا معي ويعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر الا شققته ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقا الا شققته » •• وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبي الذي يبين الحرام ، ويبين الحلال •

فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين من تفقه منهم ومن لم يتفقه في الدين ، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغي أن تكون في يد ولي المسلمين لا في يد كل فرد يعرف الحلال والحرام ، وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل ، ولكنها مسألة ادارة وتنفيذ في مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والاهواء ، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان ، فلم يكتف النبي عليه السلام بصريح التحريم في القرآن ، ولا اكتفى باسناد الأمر الى غير معروف الصفة في تنفيذ الأحكام ، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسا بأعينهم أن يمضوا في اتمام عمله ، ولم يجعل ذلك اذنا لمن شاء أن يفعل ما شاء ••

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الامن والنظام ، وتوطيد (١) أركان الشريعة والقانون ، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلاما هو أجمع لوجوده الصواب في هذه المسألة من قول النبي : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » • ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت : « ••• ألا ننازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بواحا (٢) عندكم من الله فيه برهان » • ومن قوله : « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه ، وفي بعض الشر خيار » • ومن قوله : « ان الأمير اذا ابتغى الريبة (٣) في الناس أفسدهم » الى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الادارة الحكيمة ، والخطط السليمة المستقيمة ، بين آمر ومأمور •

نظام وفوق النظام سلطان ، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شك فيه ، وجميع أولئك على ساحة لا تتخبط النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء •

---

١ ـ تثبيت ٢ ـ غير مخظور ٣ ـ التهمة والشك •

هذا الالهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة ، وعلاج شئون الجماعات ، هو الذي أوحي الى الرسول الأمي قبل كشف الجراثيم ، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول•وقبل العصر الحديث بعشرات القرون ، أن يقضي في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد ، حيث قال : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » •

فتلك وصية من ينظر في تدبيره الى العالم الانساني بأسره ، لا الى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد •• اذ ليس أصون (١) للعالم من حصر الوباء في مكانه ، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها •

تدبير الشئون العامة

على أن الادارة العليا انما تتجلى في تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الادارة كلها نصوصا وقواعد يجري الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات والموازين التي تصرف الشئون على نسق (٢) واحد ، ولكنها في كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك •

وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمد في حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام ، فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها الا أشار فيه بأعدل الآراء ، وأدناها الى السلم والارضاء • صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر باقامة الحجر الأسود في مكانه ، وهو شرف لا تتنزل عنه قبيلة لقبيلة ، ولا تؤمن عقبى (٣) الفصل فيه بايثار احدى القبائل على غيرها ، ولو جاء الايثار من طريق المصادفة والاقتراع ، فأشار محمد بالرأي الذي لا رأي غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول ، فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه ، وكان

---

١ ـ أحفظ ٢ ـ نظام وترتيب ٣ ـ أي عاقبة •

من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان ، وأن ينسلف الدعوة وهي مكنونة في طوايا الزمان ، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن (١) ٠

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة الى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة ٠٠ فترك لناقته خطامها (٢) تسير ، ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة (٣) لا تؤمن عقباها بعد ساعتها ، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل (٤) وسوء طوية (٥) ٠

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة الضعيف ايمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه الى ارضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها ، بل تريه انه هو الغالب الكاسب وانها تصيب منه المقنع والاقناع في وقت واحد : « أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة (٦) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الأنصار ٠٠٠ » ٠

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين ٠٠ فهو مدير حين تكون الادارة تدبير أمور ، ومدير حين تكون الادارة تدبير شعور ، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق اليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة ، وبالاختصاص وبالسماحة ، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال، أو لخطل (٧) في ادارة الأعمال ٠

---

١ ـ بغض ٢ ـ زمامها ٣ ـ أي جريحة ٤ ـ مكر ٥ ـ نية ٦ ـ المراد ، متاع دنيوي زائل ٧ ـ فساد ٠

البليـــغ

« اللهم هل بلّغت » !

هذه هي اللازمة (١) التي رددهـا النبي في أطول خطبـه الأخيرة ، وهي خطبة الوداع ٠٠

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ، لأنهـا لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات ، فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها الا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه : « جلال ربي الرفيع فقد بلغت ! » ٠

ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة (٢) الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الابلاغ قبل كـل سمة أخرى ٠٠ بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها ، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع ٠

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا : اما معاهدات ورسائـل كتبت في حينها ، واما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع ٠

والابلاغ هو السمة المشتركـة في أفانين (٣) هـذا الكلام جميعا ، حتى ما جرى منه مجرى القصص ، أو مجرى الأوامر الى المرؤوسين ، أو مجرى الدعاء الذي يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله ٠٠ انظر مثلا الى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الاعمال وهي كما جاء في مختار مسلم :

« ٠٠٠ بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا الى غار في جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقـت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة

---

١ ـ اللزم ، فصل الشيء ، والمراد ، الفاصلة ٢ ـ أي العلامة والميزة ٣ ـ اساليب٠

لله فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم: اللهم انه كان لي والدان شيخان كبيران ، وامرأتي ، ولي صبية صغار أرعى عليهم • فاذا أرحت (١) عليهم حلبت ، فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني • وانه نأى (٢) بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون (٣) عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم (٤) حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء •• ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء •

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت اليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار • فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها •

« فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفتح الخاتم (٥) الا بحقه ، فقمت عنها ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة • ففرج لهم •

« وقال الآخر : اللهم اني كنت استأجرت أجيرا بفرق (٦) أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطني حقي ، فعرضت عليه فرقة فرغب عنه •• فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فقال : اتق الله ولا تظلمني حقي ! قلت : اذهب الى تلك البقر ورعائها فخذها فقال : اتق الله ولا تستهزيء بي ! فقلت : اني لا أستهزيء بك • خذ ذلك البقر ورعاءها ! فأخذه وذهب به •

« فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج لنا ما بقي « ففرج الله ما بقي » •

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام في التعليم بالقصص •

فانظر الى أسلوبه في توجيه الأمراء والولاة كما جاء في مختار مسلم حيث قال : « كان رسول الله اذا أمر أميرا على جيش أو

---

١ ـ المراد ، عدت من عملي ليلا ٢ ـ بعد ٣ ـ يضجون من الجوع ٤ ـ حالي وحالهم ٥ ـ كناية عن فض البكارة ٦ ـ اناء يسع ثلاثة اصع ،

سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا (١) ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين فان أبوا (٢) أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء (٣) شيء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم • « واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة (٤) وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فانكم ان تخفروا (٥) ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله •

« واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا » •

وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر والوصايا• فانظر الى أسلوبه في الرسائل من رسالته الى النجاشي حيث قال : « سلم أنت ، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول (٦) الطيبة الحصينة (٧) فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه

« واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فاني رسول الله •

« وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرا ونفرا معه من المسلمين ،

---

١ ـ تخونوا ٢ ـ رفضوا ٣ ـ الخراج والغنيمة ٤ ـ عهد ٥ ـ تنقضوا العهد
٦ ـ العذراء او المنقطعة الى الله عن الدنيا ٧ ـ العفيفة •

فاذا جاءك فأقرهم ودع (١) التجبر ·· فاني أدعوك وجنودك الى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي ·

« والسلام على من اتبع الهدى » ·

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه في المعاهدات والمواثيق : فهذا طرف (٢) مما جاء في كتابه عليه السلام بين المهاجرين والانصار واليهود ·

« المهاجرون من قريش على ربعتهم (٣) يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

« وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (٤) الاول ، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط (٥) بين المؤمنين ·

« وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ··· » ·

وهكذا الى آخر الكتاب ·

تلك نماذج من كلام النبي في أربع أبواب مختلفات ، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق ، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها ، وهي سمة الابلاغ أو البلاغ المبين ، وأصدق ما يقال في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين · فليس أقرب من هذا الاسلوب في ابلاغ الغرض منه ·

لا كلفة ولا غموض ولا اغراب ، وقلة الغريب ـ بل ندرته ـ في كلام النبي أجدر (٦) الأمور بالملاحظة في اقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية ··

فمحمد العربي القرشي الناشيء في بني سعد ، العالم بلهجات

---

١ ـ ترك ٢ ـ جانب او جزء ٣ ـ ربعتهم : امرهم الذي كانوا عليه ٤ ـ المعاقل : الديات ٥ ـ العدل ٦ ـ أحق وأولى ·

القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية (١) في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة ·· وسر ذلك انه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روي عنه عليه السلام : أنه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل (٢) بلسانه تخلل الباقرة (٣) بلسانها » ·

وقد عرف عن النبي عليه السلام في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام ، معرضا عن اللغو ، لا يقول الا الحق وان قاله في مزاح· فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة ، فاذا كرر اللفظ بعينه كما جاء في بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه ، فهو أيضا سمة من سمات الابلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الاعادة التي روي أنه كان يتوخاها عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه ·

وفي كتابه الى النجاشي زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الاشارة الى المسيح وأمه لم تؤثر في الكتب الأخرى ، ولكنها ألزم ما يلزم في خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح في دينه وفي دين المسلمين الذي يدعى اليه ، وكيف يبتغي طريق المقابلة بين العقيدتين اذا شاء ·· ما على الرسول الا البلاغ · وهذا هو البلاغ في التعبير : كل كلمة تصل الى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار ·

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل (٤) في ابتغاء التأثير ، الا الابلاغ الذي يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الاعراض ·

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره « سجع الكهان » الذي يخدعون به

---

١ ـ بعيدة ٢ ـ خله :شق لسانه ٣ ـ الباقر : المستجر في العلم ٤ ـ المراد ، متكلف·

السامع ليوهموه أنه يستمع الى طلاسم السحرة والشياطين ، ولكنه لم يكن يأبى (١) السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتي على السجية (٢) ، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل (٣) علانية كالأذان وما هو في حكمه ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » أو قوله : « ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال » ٠

ومذهبه في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كل حلية تليق بالرجل : فحولة (٤) في القول وفحولة في الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التي يليق بالرجل أن يتحلى بها ،ولا مزيد

كتب اليه أبو سفيان كتابا يقول في آخره : « ٠٠٠ نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار :

تجاوبت القبائل من نزار   لنصر اللات في البيت الحرام
وأقبلت الضراغم (٥) من قريش   على خيل مسومة (٦) ضرام (٧)

فأجابه بكتاب جاء فيه : « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله ما لكم عندي جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح (٨) ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام،وأبشروا بضرب الحسام(٩)، وبفلق الهام (١٠) وخراب الديار ، وقلع الآثار ٠٠٠ » ٠

فهذا السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف ٠ ومن هنا أقر النبي نص الحلف الذي كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات ٠ وهذا نصه :

---

١ ـ يرفض ٢ ـ اي دون تكلف ٣ ـ الترتيل ، الترسل والتبيين ٤ ـ المراد ، رجولة ٥ ـ الاسود ٦ ـ معلمة ٧ ـ اي تشعل نار الحرب ٨ ـ المقصود ، حدود السيوف ٩ ـ السيف ١٠ ـ الرؤوس ،

« باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والاصاغر على الاصاغر ، والشاهد على الغائب • قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقضن ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير (١) ، وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان (٢) واعتمر بمكة انسان : حلف أبد لطول أمد ، يؤيده طلوع الشمس شدا ، وظلام الليل مدا ، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب،أوحزن أو سهل،وجعلوا الله على ذلك كفيلا،وكفى به حميلا •• » •

هذه أمثلة السجع الذي فاه (٣) به الرسول أو أقره من كلام غيره،وما سداه من تجميل الكلام فهو نجميل الابلاغ الذي لا كلفة فيه وقد أعانه عليه السلام على أسلوب الابلاغ أن الذين كانوا يستمعون اليه انما كانوا يستمعون الى كلام نبي محبوب مطاع،فهو نافذ في نفوسهم بغير حيلة،مستجمع لأسماعهم بغير تشويق،قائم بالكفاية الوسطى التي لا حاجة بها الى افراط ولا خوف عليها من تفريط •

أما رسائله الى الملوك والأمراء — ممن لم يسلم ولم يهتد — فانما كانت للابلاغ أول الامر ،ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين بالاجابة فيما يسألونه عنه ، فهي كذلك قائمة على كفاية الابلاغ، تلك الكفاية الوسطى التي لا افراط فيها ولا تفريط •

ونقول ان الأمرين أعانا النبي على أسلوبه المبلغ البليغ ، ولا نقول انهما أنشآه وأوحياه •• فان الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة(٤)الدين واقبال الأتباع المؤمنين ، قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع••لأن مصدر الفحولة في الابلاغ ثقته

١ ـ جبل بمكة ٢ ـ جبلا مكة ٣ ـ تكلم ٤ ـ شيوعه وانتشاره •

بقوله لا ثقة المستمعين اليه ، فكلامه كله نسق (١) واحد في هذه الخصلة ، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة ، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه،ووصاته لمن يقتدي به:أن يقصر الخطبة، ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة ٠

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثـر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس ، فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ، ويعطيه حقه ، كما كان يفعل حين يتكيء على قوس وهو يخطب في الحرب، أو يتكيء على عصا وهو يخطب في العظات ٠وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصدره اذا غضب أو أنذر « فكان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش : صبحكم مساكم » ٠

أسلوب عصري

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي ــ كتابا وخطابا ــ أسلوبا عصريا يقتدي به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان ٠٠لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور ، ويخطيء من يحسب الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة(٢) في الزمن الأخير٠ويخطيء كذلك من يحسب قبول الكلام لاشارات الترقيم(٣) علامة أخرى من علامات هذه الأساليب فاليك الحديث الذي نقلناه آنفا وهو مثل من أمثلة كثار ، حيث يقول عليه السلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وان كان مائة شرط : قضاء الله حـق ،وشرط الله أوثـق ، وانما الولاء لمن أعتق » ٠

هذا الحديث رضي البلاغة العربية في وصله وفصله ، ورضي الأسلوب العصري في اشارات ترقيمه، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق ٠

---

١ ـ ترتيب ونظام ٢ ـ المستحدثة ٣ ـ العلامات التي توضع بين الجمل او في نهايتها الفاصلة ، وعلامة الاستفهام والتعجب ... الخ ٠

رأي النبي في الشعر

وقد نقلت الينا تعقيبات معدودة عن رأي النبي في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفني ، وتدخل في كـلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة • ومنها قوله : « اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ، وقوله عن امرىء القيس ، أنه صاحب لواء الشعراء الى النار ، وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود ، فكان يقول مثلا : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه اذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس : « كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا » قدم كلمة الاسلام فقال : « كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا » لينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد ، وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون » •

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النصح (١) عن الاسلام والذود (٢) عنه وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم في قواعد النقد والانشاء •

جوامع الكلم

الا ان الابلاغ أقوى الابلاغ في كلام النبي هو : اجتمـاع المعاني الكبار في الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات ، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات •

ومن أمثلة ذلك : علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله : « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » •

ومن أمثلته : علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله : « كما تكونوا يول عليكم » ••

---

١ ـ نضح البيت ، رشه بالماء ٢ ـ الدفاع •

فأي قاعدة من القواعد الاصيلة في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات ؟

ينطوي فيها : أن الأمم مسئولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة (١) ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه • وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمــة ، لا بالنظــم والاشكال التي تعلنها الحكومة ، فلا سبيل الى الاستبداد بأمــة تعاف (٢) الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيدٍ من النظم والاشكال •

وينطوي فيها : أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأحرى ألا يغير الوالي قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك •

وينطوي فيها : « أن الأمة مصدر السلطات » على حد تعبير الحديث • وينطوي فيها : أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال •

وذلك هو الابلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ •

ويلحق بهذا في العلم بالتبعات قوله عليه السلام : « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ، ثم الامثل فالأمثل » •

فالمزايا الانسانية واجبات وأعباء ، وليست بالمتع والأزياء ، وعلم الانسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التي يبتلى بها ، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو اليها ، وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه • وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والاخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء في هــذا المقام • كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء •

وكان بليغا مبلغا على أسلس (٣) ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين •

---

١ ـ مسئولية ٢ ـ تكره ٣ ـ السلس ، السهــل •

محمـد الصديـق

عطوف ودود

اذا كان الرجل محبا للناس ، أهلا لحبهم اياه ، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها ٠٠

وانما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الانسانية ومن سلامة الذوق ، ومتانة الخلق ، وطبيعة الوفاء ٠

فلا يكفي أن يحب الناس ليحبوه ، لأنه قد يحبهم وفي ذوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم في حبه ٠٠

ولا يكفي أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها فقد يكون محبا محبوبا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفي نزرا (١) ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ، ولا تستقر عليه علاقة ٠ انما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ، والذوق السليم ، والخلق المتين . وقد كان محمد في هذه الخصال جميعا مثلا عاليا بين صفوة خلق الله ٠

كان عطوفا يرأم (٢) من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق (٣) ومقام ٠٠ كان صبيا في الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره ٠

وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء لا ينسى

وليس في سجل المودة الانسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ، فيلقاها هاتفا بها : أمي ! أمي ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده ٠٠

---

١ ـ قليلا ٢ ـ اي يرحم ٣ ـ اصل ٠

كأنه يذكر ما لذلك الثدي عليه من جميل ، ويعطيها من الابل والشاء ما يغنيها في السنة الجدباء (١) •

ولقد وفدت عليه هوازن وهي مهزومة في وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة •• لاجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبي الى المسلمين أن يردوا السبي من نساء وأبناء ، واشترى السبي ممن أبوا رده الا بمال •

وحضنته في طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه ، فقال لأصحابه : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن •• وما زال يناديها يا أمة كلما رآها وتحدث اليها ، وربما رآها في وقعة قتال تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها (٢) الأعجمية ، فلا تنسيه الوقعة الجازبة (٣) أن يصغي اليها ويعطف عليها •

★ ★ ★

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع ، فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ » • وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسا ، صافي القلب اذا كره شيئا رؤي ذلك في وجهه ، واذا رضي عرف من حوله رضاه • وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ، ولا على الناس من غير ذوي الرحم ، فكان يصغي (٤) الاناء للهرة لتشرب ، وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى المسلمين : « اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين» وكرر الوصاية بها أن « اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » •

وقال : « ان الله غفر لامرأة مومسة (٥) مرت بكلب على رأس ركى (٦) يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك » •

---

١ ـ أي قليلة الخيرات ٢ ـ اللكنة ، عجمة في اللسان وعي ٣ ـ أي العامية الشديدة
٤ ـ يميل ٥ ـ فاجرة ٦ ـ بئر •

وقال في هذا المعنى : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش (١) الأرض » ·

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الاحياء ، فكانت له قصعة يقال لها الغراء ، وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول ، وكان له سرج يسمى الداج ، وبساط يسمى الكز ، وركوة تسمى الصادر ومرآة تسمى المدلة ، ومقراض يسمى الجامع ، وقضيب يسمى الممشوق ·· وفي تسمية تلك الأشياء بالاسماء معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ،كأن لها « شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى (٢) والألقاب ·

★ ★ ★

هذه العاطفة الانسانية التي رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها ، لم تكن هي أداة الصداقة في تلك النفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلا ، ويتمثل ــ فيما يرجع الى علاقات النبي بالناس ــ في رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود ·

« كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه،فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه ، واذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله اياها ، فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه ··· » ·

« وكان اذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده ··· » ·

« وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال » ··· « واذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته » ·

« وكان أشد حياء من العذراء في خدرها · وأصبر الناس على أقدار الناس » ·

يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه : « من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار » ·

---

١ ـ حشرات ٢ ـ جمع كنيـة ·

ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم : سمت(١)جميل ،ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس في أجمل مرآه • ومع هذا كله ، أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟ وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء ، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد في سربه(٢)حتى رد الأمانات الى أصحابها،وقد يكون في ردها ما ينبههم الى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة ، وهذا الى اشتهاره بالأمانة في صباه ، حتى سمي بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغي لداعيها أمثال هذه الصفات •

★ ★ ★

كل هذه المزايا النفسية ــ بل بعض هذه المزايا النفسية ــ خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام ، وأن يجعله محبا لمن حوله جديرا منهم بأحسن حب وولاء• فلم يعرف في تاريخ العظمة ــ لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء ــ انسان ظفر بنخبة(٣) من الصداقات على اختلاف الاقدار والبيئات والامزجة والاجناس كالتي ظفر بها محمد ، ولم يعرف عن انسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والاقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط به هذا القلب الكبير •• تقدم في بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذي خطف من أهله وهو صغير ، ثم اهتدى اليه أبوه ، واهتدى هو الى أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل ، فلما وجب أن يختار بين الرجعة الى آله وبين البقاء مع سيده « محمد » اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد ، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذي غمره بحبه ومواساته ، وهو ضعيف شريد لا يرى ذويه (٤) ولا يدري من هم ذووه •

وكان لا يغني من لازموه أن يلزموه في الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم اياه بعد الممات ، فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن في ليله ونهاره ، فلما سأله السيد العطوف يستفسره علة حزنه ونحوله قال في طهارة الأبرار : « اني اذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث

---

١ ــ هيئة ٢ ــ نفسه ٣ ــ خيار الاصحاب ٤ ــ اهله •

لا أراك هناك ، لأني ان دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك » ورويت هذه القصة في أسباب نزول الآية الكريمة : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا(١) »

وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون واكرباه وهو يجيبهم : « واطرباه غدا ألقى الأحبة : محمدا وصحبه ٠٠! » ٠

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الانسان والانسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه في هذا الباب ٠ فقد بلغ من امتلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة ، فينعي(٢) اليها خاصة أهلها وهي تسترجع(٣) وتعرض عن هذا لتسأل عن النبي، وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الأخوة وبني الاعمام، الا أننا عنينا(٤) محبة الصداقة في هذا الباب لأنها هي المحبة التي جعلت كثيرا من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم اياه واطمئنانهم اليه ، فكانت سابقة في قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والايمان ٠

عظمة العظمات

ان عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هـذا الحب لفضيلة يشرف بها مقام العظيم في نظر بني الانسان ٠

ولكن قد يقال : أن استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان وهذا صحيح لا ريب فيه ٠

وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها أحد من ذوي الصداقات النادرة ٠

فأحدقت به نخبة من ذوي الأقدار ، تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأي وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن في عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة ، كما أثبت التاريخ

---

١ ـ الاية ٦٩ من سورة النساء ٢ ـ النعي ، خبر الموت ٣ ـ اي تقول ، انا لله وانا اليـه راجعون ٤ ـ قصدنـا ٠

من سير ابي بكر ، وعمر ، وخالد ، وأسامة ، وابن العاص ، والزبير ، وطلحة ، وسائر الصحابة الأولين • وربما عظم الرجل في مزية من المزايا ، فأحاط به الاصدقاء والمريدون من النابغين في تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنأبليون•

بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد،وبيئة متقاربة •

★ ★ ★

أما عظمة العظمات فهي تلك التي تجذب (١)اليها الأصحاب النابغين من كل معدن وكل طراز (٢) ، وهي التي يتقابل في حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبي بكر وعلي ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم،وكلهم مع ذلك مخالف في وصف العظمة لسواه •

تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها ، حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق،وأصبح فيها قطب(٣)جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع اليها البأس(٤)والحلم ، والحيلة والصراحة،والألمعية(٥)والاجتهاد وحنكة(٦)السن وحمية الشباب تلك هي بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الاعجاز في باب الصداقات • وما استحقها محمد الا بنفس غنيت بالحب،وخلصت له ،حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : مودة بمودة وصفاء بصفاء،وعليها المزيد من فضل التفاوت في الأقدار •

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعا بما هداهم اليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها الانسان والعجماوات ، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الانسان،ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبي بكر « ما أحد أعظم عندي يدا من أبي بكر : واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته » وكما قال عن أبي بكر وعمر : «أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر» وكما قال عن علي : «علي أخي في الدنيا والآخرة» وكما قال عن

---

١ ـ تشد ٢ ـ هيئة وشكل ٣ ـ قطب الرحى : حديدة في الطبق الاسفل من الرحيين يدور عليها الطبق الاعلى ٤ ـ الشدة ٥ ـ الالمعي : الذكي المتوقد ٦ ـ حنكة السن : الرجل أحكمته التجارب •

بعض أصحابه : ان الله تعالى أمرني بحب أربعة،وأخبرني أنه يحبهم : علي منهم ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان » وكما قال عن الأنصار جميعا وهو في مرض الموت : « استوصوا،بالأنصار خيرا ٠انهم عيبتي(١)التي أويت اليهم ، فأحسنوا الى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » ٠٠٠ وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم ٠

★ ★ ★

على أننا نلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب ، وهذا العطـف الانساني الشامل في معاملته لأعدائه وشانئيه(٢)فضلا عن معاملته للأصفياء ، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا صفاء ٠

فما ثأر من أحد أساء اليه في شخصه ، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو نائم،ورفع السيف ليهوي به،فسقط من يده على كره منه،وما حارب قط أحدا كان في وسعه أن يسالمه ويحاسنه ويتقي شره ٠ ومعاملته لعبد الله بن أبي الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الاغضاء (٣) والصفح الجميل : فقد عاهد وغدر ، ثم عاهد وغدر وعاش ما عاش يكيد للنبي في سره ويمالىء(٤)عليه أعداءه،وشاع أن النبي عليه السلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له: «يا رسول الله،انه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه،فان كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه،فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، واني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني(٥)نفسي أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار » ٠

فأبى النبي أن يقتله وآثر الرفق به،وزاد في افضاله واجماله فكافأ الولد خير مكافأة على خلوص نيته وايثاره البر بدينه على البر بأبيه ، فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه ، وصلى عليه ميتا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه ، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذي آذاه جهد (٦) الايذاء ، فذكر ، الآية : « ٠٠٠ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر

---

١ ـ عيبة الرجل ، موضع سره ٢ ـ كارهية والحاقدين عليه ٣ ـ غض الطـرف : خفضه ، او احتمل المكروه من با بالكناية ٤ ـ يساعد ٥ ـ تتركني ٦ ـ جد في الايذاء وبالـغ ٠

لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (١) •• » فقال : « لو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له زدت » •

★ ★ ★

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوربيين !

ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت أناسا بالموت كما يدين القاضي مجرما بذنبه وهو من أرحم الرحماء !••

ما أعجبهم اذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذي استوجب العقوبة كما يستوجب السبب النتيجة •

وأي ذنب ؟ ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيها أنهارا من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة •

فلا نذكر استهزاء المشركين به واعناتهم(٢) اياه والقاءهم عليه القذر والحجارة وائتمارهم بحياته وحياة أصحابه، واخراجهم المسلمين من ديارهم الى أقصى الديار، ولا نذكر العناد والاغاظة والاستثارة لغير جريرة(٣) الا انهم دعوا الى عبادة الله، والتحلي بمكارم الأخلاق ، وترك عبادة الاصنام ، وترك الرذيلة •

★ ★ ★

لا نذكر شيئا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب ، ولكننا نذكر حادثا واحدا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق في كثير غيره ، وذلك حادث الرسل الاربعين — وقيل : السبعين — الذين قتلوا في بئر معونة ولا ذنب لهم الا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلموا من ينشد علم القرآن والدين ، غير مغصوب(٤) عليه • فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الاربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي، قتلوا في قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حتمهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش•• ان بقي من أبناء القبيلة من يروي أنباء المقتلة ، فقد يقال ان القوم لرحماء في العقاب !

---

١ ـ الاية ٨٠ من سورة التوبة ٢ ـ العنت : الوقوع في امر شاق ٣ ـ ذنب ٤ـ مكره•

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء ، فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة ، بخير ما يختم به ،حين نشير الى غدر قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا اليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن في داره ، لا اكراه له ولا بغي(١)عليه ، فقتلوا جميعا ، وجيء بأحدهم زيد بن الدَّثِنَّة أسيرا ليباع ٠٠ فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ونصب للقتل ، فسأله أبو سفيان مستهزئا : « أنشدك الله يا زيد ٠ أتحب أن محمدا الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ » فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي »٠

فصاح أبو سفيان دهشا : « ما رأيت من الناس أحدا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدا ٠٠٠ » ٠

من فعلة كهذه نعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء ، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه، لأنه طبع على الصداقة ، أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم ، لأنهم هم طبعوا على العداء والاعتداء ٠

---

١ ـ عـدوان ٠

محمد الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس ، بعد كتابتنا عن محمد الصديق ، لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرؤوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة (١) من ذرائع السلطان ••

فهناك الحكم بسلطان الدنيا •

وهناك الحكم بسلطان الآخرة •

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة •

وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين في رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب •

ولكنه لم يشأ الا أن يكون الرئيس الاكبر ، بسلطان الصديق الأكبر •• بسلطان الحب والرضا والاختيار •

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطا عنده من شروط الامامة في الحكم بل في العبادة ، فالامام المكروه لا ترضى له صلاة •• وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه • فروي أنه كان في سفر ، وأمر أصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله ! عليَّ ذبحها ، وقال آخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ طبخها •• فقال عليه السلام : وعليَّ جمع الحطب ، فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، قال : علمت أنكم تكفونني ، ولكن أكره أن

---

١ ـ وسيلة •

أتميز عليكم ، ان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه » ٠

وأبى ، والمسلمون يعملون في حفر الخندق حول المدينة ، الا أن يعمل معهم بيديه ، ولولا أنها سنة حميدة يستنها للرؤساء في حمل التكاليف لأعفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه المسلمون منه شاكرين ٠ وجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال : « ان لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس ، يفزع اليهم الناس في حوائجهم ٠ أولئك الآمنون من عذاب الله » ٠

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات ، ولكنه علم كذلك « ان الأمير اذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » فوكل الضمائر الى أصحابها والى الله ، وحاسب الناس بما يجدي فيه الحساب ٠

سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج اليهم قائلا : انما أنا بشر وانه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها » ٠

واليوم يكثر اللاغطون (١) بحرية الفكر ، ويحسبونها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن في كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة ٠٠

فهذا الذي يحسبونه كشفا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبي قبل أربعة عشر قرنا ، وشرعه لأمته في أحاديثه حيث قال عليه السلام : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » ٠

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا اليها ، وهي هي دعوة النبي العربي التي كررها ولم يدع قط الى غيرها فقال : « ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ، أن رحمتي تغلب غضبي » وقال : « ان الله تعالى رفيق ، يحب الرفق

---

١ ـ اللغط : الصوت والجلبة ٠

ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف » وقال : « ان الله تعالى لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثني معلما ميسرا » • وروى عنه صاحب من أصحابه انه ما خير بين حكمين الا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه خرق (١) للدين •

وكان يوصي بالضعفاء ويقول لصحبه : « أبغوني الضعفاء فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ويذم الترفع (٢) على الخدم والفقراء « فما استكبر من أكل مع خادمه ، وركب الحمار بالأسواق واعتقل (٣) الشاة فحلبها » • لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا » •• اذ ليس الانصاف حراما على الكبراء ، حلالا لمن صغر دون من كبر ، فلكل حق ولكل انصاف ، وانزال الناس منازلهم كما أمر قومه ، وهو خير شعار تستقيم عليه الحكومة ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه •

★ ★ ★

وكان النبي الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن : « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافرا فانها ليس دونها حجاب » •

واذا قال هذا رئيس ونبي ، فانها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الانبياء •

لقد كانت سنّة الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة •• فلو استغنى حكم عن الشريعة ، لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذي جاء بالشريعة لجميع متبعيه ••

---

١ ـ أي مخالفة ٢ ـ التعالي ٣ ـ أي قيدها حتى حلبها •

الـزوج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعي الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة •

وانما تعرف مكانة المرأة التي وصلت اليها بفضل محمد ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرت عليها في الجاهلية، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره ــ وبعد عصره ــ وبين أمم أخرى غير الأمة العربية ••

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية ، وما صارت اليه بعد رسالة محمد :

كانت متاعا يورث ، ويقسم تقسيم السوائم (١) بين الوارثين فأصبحت بفضل الاسلام ونبيه صاحبة حق مشروع ، ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالها وهي في عصمته كما تشاء•

وكانت وصمة (٢) تدفن في مهدها فرارا من عار وجودها ، أو عبئا تدفن في مهدها فرارا من نفقة طعامها ، فأصبحت انسانا مرعي (٣) الحياة ، ينال العقاب من ينالها بمكروه •

ولم تكن في البلاد الأخرى بأسعد حظا منها في البلاد العربية•

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء ، ولا نذكر المتنطسين (٤) في صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم اياها من الروح • وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه انه عصر المرأة الذهبي بين الأمم الأوربية ، وان الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال •

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة » •

---

١ ـ المواشي ٢ ـ أي عار ٣ ـ يلقى الرعاية ٤ ـ المبالغين •

وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب « التاريخ الموجز للنساء » فقال : « ان عصر الفروسية كان معروفا بما لحظ فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر ، ولعلنا نقل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه ، فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان في عصر الفروسية الا على اعتبار أنها عنوان ضيعة » ٠

الى القارىء محادثة من كتاب أغاني الآداب والتحيات Chonson de Geste, يروي فيها : أن ابنة أوسيس Auseis جلست في نافذتها ذات يوم فعبر بها فتيان ـ هما جاران وجربرت ـ وقال أحدهما : « انظر ٠ انظر يا جربرت : وحق العذراء ما أجملها من فتاة ! دون أن يلتفت بوجهه ٠٠ وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : « ما أحسبني رأيت قط فتاة بهذه الملاحة ، ما أجمل هاتين العينين السوداوين ! » وانطلقا وجربرت يقول : « ما أحسب أن جوادا قط يماثل هذا الجواد » وهي حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة ، اذ قلة الاهتمام تورث الازدراء (١) ٠٠ والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء ٠ واليك مثلا حادثة في الكتاب المتقدم يروي فيها : أن الملكة بلانشفلور ذهبت الى قرينها الملك بيبن Pepin تسأله معونة أهل اللورين ، فأصغى اليها الملك ثم استشاط (٢) غضبا، ولطمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم، وصاحت تقول : « شكرا لك ٠ ان أرضاك هذا فأعطني من يدك لطمة أخرى حين تشاء » ٠

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة ٠٠ وكانما كانت اللطمة بقبضة

---

١ ـ الاحتقار ٢ ـ أي احترق ٠

اليد جزاء كل امرأة جسرت (١) في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة ·

« ··· ومتى كانت المرأة تزف الى زوجها عفو الساعة وكثيرا ما تزف الى رجل لم تره قبل ذاك ، اما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكري ، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع·ومتى كانت بعد زفافها الى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون في معظم الأحوال من الأميين — عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة — أترى سيدة القصر اذن واجدة لها رحمة أو ملاذا من حياة الشقاء ، أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ » ·

★ ★ ★

ولقد تقدم الزمن في الغرب من العصور المظلمة الى عصور الفروسية الى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة في منزلة مسفة (٢) لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية ·· ففي سنة ١٧٩٠ ، بيعت امرأة في أسواق انجلترا بشلنين ، لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها ··

وبقيت المرأة الى سنة ١٨٨٢ ، محرومة حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة ·

وكان تعلم المرأة سبة (٣) تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت اليصابات بلاكويل تتعلم في جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ — وهي أول طبيبة في العالم — كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزوين (٤) ذيولهن من طريقها احتقارا لها ، كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها ·

ولما اجتهد بعضهم في اقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الامريكية ، أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء ·

وهكذا تقدم الغرب الى أوائل عصرنا الحديث ، ولم تتقدم المرأة فيه تقدما يرفعها من مراغة (٥) الاستعباد التي استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية ··

---

١ — أي تجرأت ٢ — أي وضيعة محقرة ٣ — عار ٤ — يجمعن ويقبضن ٥ — مراغة الابل : المكان الذي تتمرغ فيه ·

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء(١)ما فرض عليها : «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف(٢)» وحكم آخر من أحكامه العالية أمر المسلم باحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات حظوة(٣) عند زوجها : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (٤) » • وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن (٥) » • ولم يفضل الرجل عليها الا بما كلفه من واجب كفالتها واقامة أودها والسهر عليها • أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم » •

وأمر بمداراة ضعفها ونقصها لأن « المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » •

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ، ويبدو لها في المنظر الذي يروقها (٦)،فقال عليه السلام مما قال في هذا المعنى وهو كثير : « اغسلوا ثيابكم ، وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا ، فان بني اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » •• وأوجب على الرجل اذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه ان كان به عيب مستور : « اذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب (٧) بالسواد فليعلمها انه يخضب » •

وبلغ من رعاية شعورها ومداراة خجلها الذي فطرت عليه أنه أوجب الرجل أن يمتعها كما تمتعه،لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها:«فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها،ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها(٨) حتى تقضي حاجتها» •

---

١ ـ أي جزاء ٢ ـ منزلة ٣ ـ الاية : ٢٢٨ من سورة البقرة ٤ ـ الاية ١٩ من سورة النساء ٥ ـ الاية ٣٢ من سورة النساء ٦ ـ يعجبها ويسرها ٧ ـ اختضب بالحناء ونحوه كالصبغة ٨ ـ معالجة •

وكان تأديبه المسلمين في هذه الصلة غاية في الكياسة والترفق، فقال مما قال في هذا المعنى : «اذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة،وتمشط الشعثة(١) ٠٠ الكيس،الكيس(٢)!»

معاملته لزوجاته

وانما نلخص ما أوجبه النبي على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم ، وهو دون ما أوجبه على نفسه في معاملة زوجاته بكثير ٠٠ فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ،ويزورهن جميعا في الصباح والمساء ، واذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاكا بساما » كما قالت عائشة رضي الله عنها ٠

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وايناسه (٣) أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحايين٠فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل الا حقا ٠٠٠ » ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ في الاجتراء(٤) عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته فيعجب لهم،ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجتري كما يجترىء الزوجات الأخريات ، واذا رأى النبي غضبا كهذا من جرأة كتلف كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك !

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، آو كما قال : « خدمتك زوجتك صدقة » ٠٠

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احداهن وسائرهن وهو ميل قلبه : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك » ٠

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث اليهن فتلطف في سؤالهن : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » ٠٠٠ ليقلن عند عائشة ويأذن له في الاقامة ببيتها ، ولو انه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان في ذلك من حرج ٠

والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ،ولكنه في حالة الرضى خلق لا يشق فهمه على كثيرين ٠

---

١ ـ الاشعث : المغبر الرأس أو الملبد الشعر ٢ـ حيث على الجماع ، أونهي عنه حال الحيض ٣ ـ مؤانسة ٤ ـ التجرؤ ٠

الا أن الخلق الذي يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء ، في هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن النبي في قصة عائشة بنت الصديق وهي أحظى (١) نسائه لديه، ونلخصها مما روته بلسانها اذ تقول رضي الله عنها:

« ... كان رسول الله اذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه ، وأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، ثم قفلنا(٢) من الغزوة الى أن دنونا من المدينة، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأني، وأقبلت الى الرحل فلمست صدري فاذا عقدي قد انقطع، فرجعت ألتمسه(٣)فجسني ابتغاؤه ،وأقبل الي الرهط الذين كانوا يرحلون لي فحملوا هودجي وهم يحسبون اني فيه، وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، انما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه اذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن .

« ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ،فتيممت(٤) منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون الي .

« فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان ابن المعطل السلمي قد عرس(٥)من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم، فعرفني حين رآني واسترجع، فاستيقظت وخمرت(٦)وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه(٧)حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نحر الظهيرة .

« فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله ابن أبي بن سلول .

---

١ ـ أعظمهن مكانة ٢ ـ أي رجعنا ٣ ـ اطلبه وابحث عنه ٤ ـ قصدت ٥ ـ نزل في اخر الليل للاستراحة ٦ ـ غطيت ٧ ـ قوله : انا لله وانا راجعون .

واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون في قول أهل الافك(١) ولا أشعر بشيء من ذلك ·

« ··· ويريبني(٢)في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي·انما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم(٣)فذاك يريبني،ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت(٤)وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مرطها(٥)،فقالت : تعس مسطح ! » ·

قلت : بئس ما قلت ! أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟

« قالت : أي هنتاه ! أولم تسمعي ما قال ؟

« قلت : وماذا قال ؟

« فأخبرتني بقول أهل الافك ، فازددت مرضا الى مرضي ، فلما رجعت الى بيتي،فدخل علي رسول الله،فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ استأذنت أن آتي أبوي : أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي ·

« قالت أمي : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة(٦) عند رجل يحبها ولها ضرائر الا كثرن عليها ·

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ(٧) لي دمع ، ولا اكتحل بنوم ·

« ودعا رسول الله علـي بن أبي طـالب وأسامة بن زيد يستشيرهما في فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود . وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم الا خيرا ·

« وأما علي بن أبي طالب فقال:لم يضيق الله عليك،والنساء سواها كثير ، وان تسأل الجارية تصدقك ·

« فدعا رسول الله بريرة يسألها : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قد

---

١ ـ الكذب ٢ ـ يشككني ٣ ـ أي كيف احوالكم ٤ ـ صححت من مرضي ٥ ـ كساء من صوف او خز يؤتزر به ٦ ـ حسنة جميلة ٧ ـ يسكن ·

أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الداجن فتأكله ·

« ··· وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم .وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ·

« فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد ، يا عائشة ، فاني قد بلغني عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت (١) بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه ·

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص (٢) دمعي حتى ما أحس منه قطرة · فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ! فقال : والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله ·

« فقلت لأمي : أجيبي عني · فقالت كذلك · والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله ·

« قلت ــ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ــ اني والله لقد عرفت انكم سمعتم بهذا ، حتى أستقر في نفوسكم وصدقتم به : فان قلت لكم : اني بريئة ، والله يعلم اني بريئة ، لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم اني بريئة ، لتصدقونني ، واني والله ما أجد لي ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ·

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ·

« ··· فوالله ما رام(٣) رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرّحاء (٤) عند الوحي ، حتى انه ليتحدر (٥) منه مثل الجمان في اليوم الشاتي ·

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشري يا عائشة ! ·· اما الله فقد برأك ·

« قالت لي أمي : قومي اليه ·

---

١ ــ الموت ٢ ــ ارتفع وانزوى ٣ ــ ما برح ٤ ــ الجهد ٥ ــ يتنزل عرقه ·

« قلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله ، هو الذي أنزل براءتي •• وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ، فأقسم لا ينفق عليه شيئا أبدا ، فأنزل الله عز وجل : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى •• الى قوله : ألا تحبون أن يغفر الله لكم (١) ؟ » •

« فقال أبو بكر : والله اني لأحب أن يغفر الله لي ، ورجع الى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه » •

تلك هي القصة التي عرفت بقصة الافك كما روتها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهي مسبار (٢) صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق في معاملة النبي لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين ، فليس النبي هنا في حالة من حالات الرضى التي تسلس (٣) الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الاناة (٤) ، ولكنه في حالة من تلك الحالات التي تثير الحمية ، وتثير الحب ، وتثير النقمة ، وتثير في النفس البشرية كل ساكنة تدعو الى طيب المعاملة ، فلم يكن في هذه الحالة الا كرما خالصا بما سلك في أمر نفسه وفي أمر أهله وفي أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالمي الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع اليه في جميع هذه الغايات • سمع النبي حديثا يلاك بين المنافقين ويسري الى المسلمين بل الى خاصة ذويه الأقربين : حديثا يسمعه رجل كعلي بن أبي طالب في بره وكرم نحيزته (٥) فلا يرى بعده حرجا من الطلاق والنساء كثيرات •

سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بيِّنة ولم يرفضه بغير بيِّنة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها الى حين •• فعادها وبه من الرفق والانصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها في مرضها بما يخامر (٦) نفسه الكريمة ، وبه من الموجدة (٧) والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء ، وظل يسأل عنها سؤال متعتب ينتظر أن تشفي وأن تأتيه البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة ، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ في هذا الموقف الأليم بما توجبه الحمية وما توجبه المروءة في آن •

---

١ ـ الآيه ٢٢ من سورة النور ٢ ـ السبر : امتحان غور الجرح وغيره ٣ ـ تلين ٤ ـ الحلم ٥ ـ طبيعه ٦ ـ يخالط ٧ ـ الحزن •

وسأل من ينبغي أن يسأل : عليا واسامة وهما بمقام ولديه ، وبريرة الجارية التي تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها ، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعهـا (١) في حظوتها لديه : زينب بنت جحش التي كانت اسرع من يقول لو علمت شيئا يقال . فاستعاذت بالله وقـالت : « آحمي سمعـي وبصري ، والله ما علمت الا خيرا » ·

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته في زيارة أهلها ، وآن له أن يفاتحها وقد وصل النبأ الى سمعها ، ولم يئن له قبل ذلك وهو كاظم ما في فؤاده قادر على كتمانه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو سقامها · فاتحها لتبرىء نفسها أو تستغفر الله ·

وغضبت غضب البريء المشكوك فيه ، وانها لبريئة في نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش ، وفي وضح النهار ، ولغير ضرورة ، ومع رجل من المسلمين يتقي ما يتقيه المسلم في هذا المقام مـن غضب النبي وغضب المسلمين وغضب الله ، فتلك خلة تترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وأنفة ، فكيف بها في مكانها المعلوم · الا أن النبي أراد لها البراءة أمام الخلق عامة ، وأمام نفسه المحبة ، حذرا أن تكون تبرئته اياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق (٢) ، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق الى الثقة ، كان قد وفى الكرم والحمية والانصاف والرحمـة أجمعين ·

نعم وفي الرحمـة حتى باللاغطين المتعجلين الـذين أبدأوا وأعادوا في ذلك الحديث المريب ، وما أحـد أرحم ممن يرحم المفترون على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطاعا ينـال في عرضه فينـال بالعقاب العدل من استحقوه ·

سماحة الكريم

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبي سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الافك

---

١ ـ أي تساويها ٢ ـ توثـق ·

عن سوء نية وكيد مبيت للنبي ودينه ، وكان هذا الرجل كما تقدم في بعض فصول هذا الكتاب بغيضا الى المسلمين ، متهما عندهم ، يتوجسون (١) منه ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبي في قتله ، فما ضر النبي لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته (٢) ويحاسبونه على كيده ، وينقمون لعرض النبي منه ليأمنوا شره ، ويجعلوه عبرة لغيره ؟ واذا قيل : ان عبد الله بن أبي كان من أصحاب العصبية التي يحسب حسابها وتتقي بوادرها (٣) ، فلماذا يقال في مسطح وهو مكفول أبي بكر وصنيعته الذي يأكل من ماله ؟ ما الذي أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبي وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن •

على أن العصبية التي كان عبد الله بن أبي يلوذ (٤) بها لم تكن لتحميه عقاب النبي لو أراده بعقاب ولو كان أصرم (٥) عقاب •• فما من عصبية هي أقرب الى رحم الرجل وأولى بالذود عنه من ولده المشهور ببره • وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له أن النبي يهدر (٦) دمه ويقضي بموته•

انما هي سماحة الكريم ••

انما هي السماحة التي شملت مسطحا كما شملت كبير المنافقين ، وخرجت من حديث الافك كله بالعفو عن جميع المسيئين ، مخلصين في الرأي وغير مخلصين ، وهي التي سبرت غورا في قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات في أحرج الحالات ، وتلك هي المعاملة الطيبة في مثلها الأعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور ، بل تطول مدى السنين ،وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة ، وتطول في جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا تنحصر في حالة الرضى والطمأنينة ، وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج في العصر الذي وصفوه بعصر المرأة ، لفرط ما أطنب (٧) فيه المطنبون من اكبار شأنها والدعوة الى انصافها •

---

١ ـ يضمرون الخوف ٢ ـ افترائه وكذبه ٣ ـ خطأها وسقطاتها عندما تحتد ٤ ـ أي يحتمي ٥ ـ أي أشد ٦ ـ يبيح ٧ ـ أطنب الرجل : أتى بالبلاغة في الوصف من مدحا كان أو ذما •

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الهدف الثاني الذي يرميه المشهرون بالاسلام فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشمائل النبوة، مخالفا لما ينبغي أن يتصف به هدأة الأرواح

السيف والمرأة !

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبي بين الاستسلام للغضب، والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء ٠

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه ٠

أما المرأة فالظنة (١) فيها أضعف من الظنة في السيف على ما نراه ، لأن الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق ــ مسلما كان أو غير مسلم ــ حين يبحث في تعدد زوجات النبي، وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفيما اقتضاه ٠

قال لنا بعض المستشرقين : أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ٠٠

قلنا : انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية Oversexed لأنه جمع بين تسع نساء ٠

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا (٢) على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء الفطرة (٣) لا عيب فيه، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى ٠ أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفا من الفراسخ ، ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه (٤) ؟ أرأيت الى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته الى وطنه ؟ أرأيت الى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

---

١ ـ التهمة ٢ ـ اي ضررا ٣ ـ الخلقة ٤ ـ من حيث أتى ٠

أرأيت الى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي سنتها ان لم تكن هي سنَّة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة ان لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه ٠٠هذا هو سواء الفطرة لا مراء ٠

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه (١)، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا (٢) في طلابه، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة ، يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع ٠ فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعة (٣) ان المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

من من بناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الاسلامية ؟

ومن ذا الذي يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟

عم شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو (٤) محمد في مسعاه ؟

فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها، ويعطي المرأة حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ورسالة محمد اذن هي الرسالة التي يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين(٥) لها ولا منبوذين منها ، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور ٠

وأعجب شيء أن يقال عن النبي أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه ، أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها ٠

فقد شكون ــ على فخرهن بالانتماء اليه ــ انهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم (٦) النبي وهم بتسريحن (٧) ، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح ٠

---

١ ـ أي حد العدل والاعتدال ٢ ـ أي بعدا ٣ ـ قلبه وعقله ٤ ـ غاية ٥ ـ النبذ : طرح الشيء ٦ ـ الواجم : الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام ٧ ـ بتطليقهن ٠

وذهب اليه أبو بكر يوما « يستأذن عليه فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لأحد منهم • ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده فوجدا النبي جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا ، فأراد أبو بكر أن يقول شيئا يسري عنه ، فقال : « يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة ! سألتني النفقة فقمت اليها فوجأت (١) عنقها » فضحك رسول الله وقال : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة ! •• فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ » •

فقلن : « والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده » • ثم اعتزلهن الرسول شهرا أو تسعة وعشرين يوما ، فنزلت بعدها الآية التي فيها التخيير وهي : « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما (٢) » •

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة ! اني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك » •
قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية ••
قالت : « أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ •• بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة •• » ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها ••

علام يدل هذا ؟
نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات •
أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال (٣) والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن ارادة الرسول من ارادة الله ؟ ••

---

١ ـ أي ضربت ٢ ـ الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب ٣ ـ الغنائم •

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال أنه كان يفرط في ميله الى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سنته، أو يخالف ما يحمد من سيرته ، أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟

لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون ، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميله الى نسائه ٠٠ فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه(١) ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة(٢) في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد ٠

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرخي أوربا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ، ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ، ثم يقال انه رجل غلبته لذات جسه !

ونرى رجلا تألبت(٣) عليه نساؤه، لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه !٠

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف(٤) والقناعة على ارضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه، ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه!

ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح ، أو لعله أقبح فلاح !

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل رواجه ولا بعد زواجه فتتخبط(٥) فيه الظنون ذلك الخبط الذريع(٦) ٠ فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية ، كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة ٠

كان معروفا من صباه الى كهولته ، فلم يعرف عنه أنه استسلم

---

١ ـ تكلفه ٢ ـ أي سعة ٣ ـ أي تجمعن عليه ٤ ـ القوت الضروري ٥ ـ أي تضرب
٦ ـ السريـــع ٠

للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ٠٠ بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة(١)٠وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه ، والناعين عليه ، والمنقبين وراءه عن أهون الهنات(٢): تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات٠٠كلا٠٠لم يقل أحد هذا فقط من شانئيه وهم عديد لا يحصى ، ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل ٠

ولما بنى بأولى زوجاته ــ خديجة ــ لم تكن لذات الحس هي التي سيطرت على هذا الزواج،لأنه بنى بها وهي في نحو الأربعين وهو في نحو الخامسة والعشرين،ونيف(٣)على الخمسين،وأوتي الفتح المبين،وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة في الزواج بأخرى ٠ ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس ، أو ذكرى متاع جميل ، لأنه فضلها على عائشة في صباها وهي أحب نسائه اليه ، وكانت عائشة تغار منها في قبرها ، فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها ٠

قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بدلك الله خيرا منها ، فقال لها مغضبا : « لا والله ما أبدلني الله خيرا منها ٠ آمنت بي اذ كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » ٠

فلهذا أحب خديجة،ووفى لها،وفضلها ولم يمح ذكراها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب،وليست لذات حس ، ولا ذكرى متاع جميل ٠

أسباب تعدد زوجاته

ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة،لكان الأحجى(٤) بارضاء هذه الملذات أن يجمع النبي اليه تسعا من الفتيات الأبكار اللائي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن اليه راضيات

١ ـ الرصين : المحكم الثابت ٢ ـ أي الزلات ٣ ـ زاد ٤ ـ الاجدر ٠

فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة • لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضي الله عنها،ولم يكن زواجه بها مقصودا في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة • قالت عائشة رضي الله عنها : « لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون للنبي : « أي رسول الله !•• ألا تتزوج ؟ » •

قال : « من ؟ » •
قالت : « ان شئت بكرا وان شئت ثيبا ؟ » •
قال : « فمن البكر ؟ » •
قالت : « بنت أحب الناس اليك عائشة بنت أبي بكر » •
قال : « فمن الثيب ؟ » •
قالت : « سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك » •

ثم كانت سودة هي أولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفـاة خديجة ، وكان زوجها الاول ــ ابن عمها ــ قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة ، وكانت هي من أسبق النساء الى الاسلام فآمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها الى الحبشة فرارا مـن اعنات(١) المشركين له ولها ، فلما مات لم يبق لها الا أن تعود الى أهلها فتصبأ(٢) وتؤذى،أو تتزوج بغير كفؤ ، أو بكفؤ لا يريدها فضمها النبي اليه حماية لها ، وتأليفا لأعدائه من آلها•وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر الى لذات حس ، ومال الى متاع •

وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة(٣) والفتاء(٤) وهي زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام،التي زوجها زيدا ابن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت ــ وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول الله ــ أن يتزوجها غلام عتيق

هذه أيضا لم يكن«للذات الحس»المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطلق زيد اياها ، وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان

---

١ ــ أي اضطهاد وظلم ٢ ــ ترجع عن الاسلام الى عبادة الاصنام ٣ ــ الحسن والجمال ٤ ــ الشباب •

للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء،ولا يروضها(١)على قبول زيد وهي تأباه(٢) فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ، ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدا وشدد عليها في قبوله • فلما تجافى(٣) الزوجان،وتكررت شكوى زيد من اعراضها عنه وترفعها عليه،واغلاظها القول له كان زواج النبي بها « حلا لمشكلة » بيتية بين ربيب في منزلة الابن ، وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق •

أما سائر زوجاته عليه السلام،فما من واحدة منهن ـــ رضي الله عنهن ـــ الا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر (٤) به المرجفون من لذات الحس المزعومة • فأم سلمة : كانت كهلة مسنة يوم خطبها ، كما قالت له معتذرة اليه ، لاعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوة أحد•ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا : « سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ، وأن يخلفك خيرا » •

فقالت : « ومن يكون خيرا من أبي سلمة ؟ » فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة ، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت في الاعتذار ، وهما أعظم المسلمين قدرا بعد النبي عليه السلام ••

وجويرية بنت الحارث سيد قومه •كانت احدى السبايا في غزوة بني المصطلق،فتزوجها النبي ليعتقها،ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجا عنهم وتألفا لقلوبهم ، فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء في حرم رسول الله فاختارت البقاء في حرم رسول الله •

وحفصة بنت عمر بن الخطاب:مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت،وعلى عثمان فسكت•وبث(٥) عمر أسفه (٦) للنبي فلم يكن للنبي عليه السلام أن يضن على وليه وصديقه

---

١ ـ أي يذللها ٢ ـ ترفضه ٣ ـ دب بينهما التجافي والكراهية ٤ ـ الهذر : الهذيان، وأهذر في كلامه : أكثر ٥ ـ أبثه سره : اظهره له ٦ ـ الاسف : أشد الحزن ؛ وأسف عليـــه : غضـــب •

بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر من قبله ، وقال : يتزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان ٠

ورملة بنت أبي سفيان : تركت أباها لتسلم ، وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها الى الحبشة ، ثم تنصر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل(١)،فأرسل النبي الى النجاشي في طلبها لينقذها من ضياع الغربة،وضياع الأهل،وضياع القرين،فكانت النجدة الانسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة الى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بآصرة(٢)النسب ، عسى أن يهديه ذلك الى الدين ، بما يعطف من قلبه،ويرضي من كبريائه٠

وكان اعزاز من ذلوا بعد عزة : سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن فيالذل بعد فقد الحماة والاقرباء ، ولهذا خير صفية الاسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بهـا ، فاختارت الزواج منه عليه السلام٠وآية الآيات في رعاية الشعور الانساني انه عليه السلام أنب(٣)صفيه(٤)بلالا ، لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود٠فقال له مغضبا : « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما ؟ » واحتقرتها زينب فلقبتها يوما باليهودية،فهجرها شهرا لا يكلمها،ليأخذ بناصر هذه الغريبة ، ويدفع عنها الضيم(٥) ٠٠

★ ★ ★

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبيهاتها من دواعي اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات في حين واحد ٠

ولا حرج ــ كما أسلفنا ــ على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة في زواجه ، ولكن الذي حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة في الاعتبار عند نظر النبي في اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها،وفي ابان(٦)الشباب أو بعد تجاوز الكهولة

---

١ ــ عاله : كفاه معاشه ٢ ــ رابطة ٣ ــ لام ٤ ــ مصطفاه ٥ ــ الذل ٦ ــ أي قــت وحين ٠

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا : هي صورة رجل فرغ للذاته،وجلس ينتقي واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع ، فانما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن الى الايواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التي تقضي باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه ، ولا استثناء في هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته،حتى التي بنى بها فتاة بكرا موسومة(١) بالجمال وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٠

الا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ، ولم يذكروا الا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته،ليفتروا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه ،وذاك انه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات٠

نسوا أنه اتسم(٢) بالطهر والعفة في شبابه،فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، في غير مشقة عندهم ولا معابة ٠

ونسوا أنه بقي الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات ٠

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ٠

ونسوا أنه اختار احسابا في حاجة الى التآلف أو الرعاية ، ولم يختر جمالا مطلوبا للمتاع ٠

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لارضاء نسائه وارضاء نفسه ، ولو شاء لما كلفه ارضاء نفسه وارضاؤهن غير القليل بالقياس الى ما في يديه ٠

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام ٠ فلماذا نسوه ؟

---

١ ـ المراد : متصفة ٢ ـ اتسم بكذا : عرف به ٠

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا،وأن يتقولوا،وأن ينحرفوا عن الحقيقة،وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها ، وتعمدوا ذكرها،ولم يتعمدوا نسيانها ٠

الوجهة الخلقية

ونستطرد الى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية، فلا نطيل فيه ،لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد ، وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية في تعدد مناحيها ، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الاسلامية في تفصيلها ولا مسوغات (١) الأصول الدينية على اختلافها ٠

فأوجز ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية او الأدبية : أن النبي عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها ، أو مباحا يختاره من يختاره وله مندوحة(٢)عنه٠٠وانما جعله ضرورة يعترف بها الرجل ، وتعترف بها الأمة في بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات ، ولن ينكر هذا الا متعنت يصدم (٣) الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل(٤) للعيان ٠

ففي حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد كان خيرا من الاخلاء بينهن وبين التأيم(٥)والمذلة والرجعة الى الكفر والضلالة،وكان خيرا من قطع تلك الآصرة(٦)التي وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل في نفع الدين والمتدينين به ، وهي ضرورة يلجأ الى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة ، بل أمم تمارس الحياة الدنيا ، وكل امام عليم بطبائع الناس ٠

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعا،ثم تحللت منها باباحة الزنى ، وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج ، أو خارج عن نطاق البيت والأسرة،ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية الى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات ، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات ٠

---

١ ـ أي مجوزات ٢ ـ سعة ٣ ـ المراد : يردها ويصدها ٤ ـ المراد : الظاهر المرئي ـ العيش بدون زوج ٦ ـ الرابطـة ٠

فلا شك أن الجمع بين المرأة العقيم(١)أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذهـا في معترك هـذه الدنيـا الضروس(٢)بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حي يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ، ولولاها لانتقض في المجتمع الانساني أساس كل زواج .

ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات .

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة في أوقات الحروب التي ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الانساني وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة في عصمة رجل أو في متناول كثير من الرجال .

هذا شيء جائز ..

بل هذا شيء أكثر من جائز ، لأنه واقع لا محيد(٣) عنه ولا حيلة فيه،وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى .. بل اللوم عليه أن ينظر في شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التي تصدم كل عين .

★ ★ ★

ومن السهل ــ على مــن أراد ــ أن يسوس العالم في خياله بالفضائل التي تروقه(٤)وترضيه ! وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذي يساس له ويرضى بما ارتضاه ، وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التي واجهت محمدا بادىء الرأي على غير مثال سابق يحتذيه ، الا ما ألهمه الله .

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث ؟

وانما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابا في الأطوار والعادات يشبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية،ونعني به الثورة الفرنسية،وحضر انحدارا(٥)في الأخلاق والآداب يشبه

---

١ ــ التي لا تلد ٢ ــ الضرس : اشتداد الزمان ٣ ــ اي لا عدول عنه ٤ ــ اي تعجبه ٥ ــ هبــوطا .

الانحدار الذي أصيب به العرب في أواخر عهد الجاهلية،وأسس دولة،ونظر في سن قانون،وحاول ضروبا من الاصلاح ٠

نابليون قد طلق امرأته،وأكره أحبار(١)المسيحيةعلى قبول هذا الطلاق، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات(٢)متعددات،غير الخليلات المجهولات ٠ ونابليون يقول عن المرأة : « لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى ٠ الا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج ، والا أحجم(٣) الناس عن الزواج الا القليل » ٠

« ولقد كان للرجل في العهد القديم سريات(٤) الى جانب الزوجات ، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم اليوم٠٠انه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة ٠ فتحمل هذه الزوجة الواحدة ، وكأن الرجل في أثناء حملها أعزب أو عقيم ٠

★ ★ ★

واليوم لا سريات للرجال ، ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد والافساد ٠

« انهم في فرنسا يخولون(٥)النساء فوق حقهن من التعظيم ، وانما الواجب ألا ينظر اليهن كأنهن مساويات للرجال ، فما هن في الحقيقة الا آلات لاخراج الأطفال ٠

« وقد تمردن في ابان الثورة،وعقدن الجماعات لأنفسهن ، وبدا لهن أن يؤلفن فرقا منهن في الجيش ٠

« وكان لا بد من صدهن،لأن المجتمع الانساني عرضة للخلل والفوضى اذا تركالنساء حالة الاعتماد علىالرجال وهي مكانهن الحق في الحياة ٠ نعم ان المجتمع لوشيك اذن أن يتمزق بددا(٦) بغير انتهاء ٠

« وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة ٠٠فاذا نشبت(٧)الحرب بينهما ، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسود !

---

١ ـ أي علماء ٢ ـ عشيقات ٣ ـ اعرض ٤ ـ يتسرى بهن ويتمتع ٥ ـ أي يعطون
٦ ـ بدده : فرقه ٧ ـ علقت ٠

« الا وان الطلاق لأضر بالمرأة دون مراء(١) ، فالرجل الذي يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذي يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال • انها تضمحل(٢) اذن كل الاضمحلال » • كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية في العصر الحديث • فكيف اعترف بها «لنين» في الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟ حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج •• فلا رابطة بين الزوجين أوثق(٣) من رابطة الرفيقين في الفندق أو الطريق، وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة الا الذي جعله على هذا النحو شريعة عجماوات •

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبي في حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات في الاسلام، وللعقوبة التي اختارها عليه السلام • لأن عقوبة الرجل لامرأته في حالة الغضب كمحاسنته لها في حالة الرضى ــ كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده ، ومكانة المرأة عامة في تقديره •

والقرآن ينص على العقوبات السائغة(٤) في حالة النشوز(٥) وهي العظة والهجر في المضاجع، والضرب، والتسريح باحسان : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن : فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا(٦) » • « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (٧) ••• » •

والنبي عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها • ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادما فضلا عن زوجة ، بل روي عنه ما ينفي ذلك مما عاشروه ولازموه •

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال : « أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! » •

---

١ ــ ريب او شك ٢ ــ اضمحل الشيء : ذهب ٣ ــ اقوى واكد ٤ ــ المقبولة والجائزة
٥ ــ نشزت المرأة : استعصت على زوجها وابغضته ٦ ــ الاية : ٣٤ من سورة النساء
٧ ــ الاية : ٢٣١ من سورة البقرة •

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فانما نص عليه لعلاج النشوز الذي لا يستقيم بغيره ، وقيده المفسرون بشروط تمنع الايذاء وتحصره في القدر الذي يستقيم عليه الجزاء •

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره ، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه(١) ، وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللائي يشتهين الضرب كما يشتهي بعض المرضى ألوان العذاب •

انما العقوبة التي آثرها النبي عليه السلام هي الهجر الطويل أو القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل •

والهجر ـ ولا سيما الهجر في المضاجع ـ عقوبة نفسية بالغة، وليست كما يسبق الى بعضهم عقوبة حسية ، تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فان فوات السرور والمتعة أياما لا يؤلم المرأة هذا الايلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق •

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه نداء للجنس اللطيف : « أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره اياها ، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع وانما يتحقق بهجر الفراش(٢) نفسه ، وتعمد هجر الفراش(٣) أو الحجرة زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى • وربما يكون سببا لزيادة الجفوة ، وفي الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذي هو فيه ، لان الاجتماع في المضجع هو الذي يهيج شعور الزوجية ، فتسكن نفس كل من الزوجين الى الآخر ويزول اضطرابها الذي أثارته الحوادث قبل ذلك ، فاذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة رجى أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسي الى سؤاله عن السبب ، ويهبط بها من نشز المخالفة الى صف الموافقة ، وكأني بالقارىء وقد جزم بأن هذا هو المراد ، وان كان مثلي لم يره لأحد من الأموات ولا الاحياء » •

---

١ ـ استرذله : ضد استجاده ٢ ـ المقصود بالفراش هنا : الوطء ٣ ـ المقصود بالفراش هنا : السرير ونحوه •

والذي نراه أن الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية ، وان الحكمة في ايثارها أعمق جدا من ظاهر الأمر كما رآه الاستاذ •

فأبلغ العقوبات ولا ريب : هي العقوبة التي تمس الانسان في غروره وتشككه في صميم كيانه : في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط(١) وجوده وتكوينه ••

★ ★ ★

والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ،ولكنها لا تأسى(٢) لذلك ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبته بفتنتها ، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها •

فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ، وحسبها أنها لا « تقاوم » بديلا من القوة والضلاعة (٣) في الأجساد والعقول:

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له ، وهي في أشد حالاتها اغراء بالفتنة ، ثم لم يبالها ، ولم يؤخذ بسحرها ، فما الذي يقع في وقرها وهي تهجس(٤) بما تهجس به في صدرها ؟

أفوات سرور ؟ أحنين الى السؤال والمعاتبة ؟ كلا ، بل يقع في وقرها أن تشك في صميم أنوثتها ، وأن ترى الرجل في أقدر حالاته جديرا بهيبتها واذعانها (٥)،وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى(٦)بالفتنة ولا بغلبة الرغبة،فهو مالك أمره الى جانبها وهي الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب(٧) الى التسليم ،وتفر من هوان سحرها في نظرها قبل فرارها من هوان سحرها في نظر مضاجعها •

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد ، بل هذا هو الصراع الذي تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح ، لأنها جربت أمضى سلاح في يديها فارتدت بعده الى الهزيمة التي لا تكابر نفسها فيها ،

---

١ ـ متعلق ٢ ـ تحزن ٣ ـ المراد : القوة ٤ ـ الهاجس : الخاطر ٥ ـ اخضاعها
٦ ـ أي تتصبر ٧ ـ ترجع •

فانما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها ·· فاذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك ··

★ ★ ★

وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة ، ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة ·

انما العقوبة ، ابطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل باحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه ، والهجر في المضاجع هو مثابة(١) الرجوع الى هذا الاحساس ·

★ ★ ★

على أن عقاب النبي لزوجاته كان من الندرة بحيث لا يذكر، لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته الخاصة والعامة على السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذي يصل المقطوع ويرأب(٢) المصدوع (٣) ·

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات ، وهو في حالتي عقابه واحسانه انسان على أكمل ما يكون الانسان من رحمة وكيس(٤)وانصاف ·

واذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية ، فالدليل الذي لا يحار : أن ينقضي نحو أربعين سنة عليها وهي على ذلك الصفاء والولاء الذي لم يعرف مثله في علاقات الرجال والنساء: هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة ، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب ، وراحة النفوس ، وحب الخير ، ومبادلة العطف والتعظيم ·

---

١ ـ مرجع ٢ ـ يصلح ٣ ـ المشقوق ٤ ـ الكيس : ضد الحمق ·

الأبوة الروحية والأبوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم ، وحارت في تعليلها عقول الاساطين من أهل العلم والحكمة

وهو ولا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء ، وان كنا نحن لا نعلم كنهه(١)ولا نسبر عمقه ، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول اليه ·

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجري على سنة المكافاة والتعويض في معظم حالاته ، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتقان في مزية أخرى · فالأحياء السفلى عرضة للعطب(٢)الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الالوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير ··

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى ·

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فاذا أداها في صورة أعفي منها في الصور الأخرى ، أو كأنما هي مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدي

---

١ ـ كنه الشيء : نهايته ٢ ـ التلف ·

حسابه للنوع على نحو من الانحاء ٠

والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في تحديد النسل وزيادة عدده ٠

فهل يجوز لنا أن نقول : ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شئون الناس ، فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضي بنا الى الجزم أو الى التغليب ٠٠

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية كعيسى عليه السلام ٠ وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها اناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة ٠

وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمة ، وفي جميع الأمم، وفي جميع العصور ، حافلة بالشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة(١) بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون،ويدخل فيهم القادةالعسكريون والسياسيون ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه،وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الافغاني ،ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله نديم ، ومصطفى كامل ، ومصطفى فهمي ، ومحمود سامي البارودي ، وحافظ ابراهيم ٠

فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شئون النوع الانساني ضريبة تغني

---

١ ـ جديرة ٠

عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال ــ فأين ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها في رسالة نبوية، تتناول الأجيال بعد الاجيال ، وتتناول الملايين في كل جيل ؟٠٠ وأي أبوة انسانية تغني عن أبوة اللحم والدم كما تغني أبوة النبي الذي يتكفل بتربية الأرواح في أمته ، وفي أمم لا يلقاها في زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

نذكر هذا حين نذكر حظ(١)محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا في الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار ٠٠ ألا ما أثقل ثمن الاصلاح !

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء ٠

فمحمد الأب كان أصلح الآباء ، ثم فجع في بنيه فجيعة (٢) لا يداري فيها ألم الانسان الا صبر الانبياء ٠

ومن الناس من لا يكون صديقا صالحا ، ولا سيدا صالحا ولا زوجا صالحا ، ولكنه أب صالح برّ ببنيه ٠٠

لأن الرحم بين الآباء والابناء أدنى الأرحام الى المودة ، وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد ٠

فكيف تكون الأبوة في نفس صلحت للصداقة ، وصلحت للسيادة ، وصلحت للزوجية ، لأنها تصلح للعطف الذي يعم القريب والغريب ، ويشمل القوي والضعيف ؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه ٠

★ ★ ★

ونعلم كيف يحزن حين يفجع في أولئك الأبناء ٠

ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل في مولد ابنه الذي سماه باسم جده الأكبر أملا في أن يصبح بعده خليفته الاكبر ٠ولعل العطف الأبوي قد تمثل في تشييع هذا الطفل الصغير ، أشد من تمثله في استقباله يوم ميلاده ٠ كانت أسباب كبيرة توحي الى قلب محمد العظيم شوقه الطويل الى استقبال ذلك الوليد ٠

---

١ ــ نصيب ٢ ــ الفجيعة : المصيبة ٠

كان منها أن محمدا عربي يحرص على العقب(١) من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هـم فخورون بالنسب ، فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلـف ويتوقون(٢)الى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون(٣) وان كان حب الذرية فطرة مركبة في جميع الطباع •

ومحمد كان يحب التكاثر(٤)لنفسه ، ويحبه لأمته ويوصي المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ، ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة ، فاشتياقه الى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة(٥) الانسانية والخليقة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التي ركبت في جميع الطباع ••

وكان من أسباب هذا الشوق القوي : طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضي الله عنها ، وشماتة أناس من شانئيه سماه بعضهم بالأبتر(٦)لانقطاع معظم نسله : وفي ذلك نزول الآية الكريمة : « ان شانئك هو الأبتر(٧) » •

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له في خلالها زوجة من زوجاته ، ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل : مات القاسم ، والطاهر ، طفلين • وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوجن ،ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء •

فجيعة تضاعف الشوق الى الوليد المأمول •

وطول انتظار يضاعف الحب له ، كما يضاعف الشوق اليه•

ولسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي جميعا بغير عقب ؟ ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الاحوال : فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكرا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين ، وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وان كانت ولودا فيما بعدها • أما أزواجه الأخريات اللائي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الاولين خلفا غير رملة أم

---

١ ـ أي الولد والذرية ٢ ـ يشتاقون ٣ ـ أي اهل المدن ٤ ـ كثرة ٥ ـ الطبيعـة
٦ ـ الابتر : من لا عقب له ٧ ـ الاية : من سورة الكوثر •

حبيبة ، وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة.

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ،واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها ، اذا تذكرنا أن النبي قد توخى(١) في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهي : الايواء الشريف والمصاهرة • وبعضهن ــ بل معظمهن ــ قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء(٢) الهجرة البعيدة،ما يعقم الولود • فاذا أضفنا الى ذلك معيشة الكفاف ، وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا اليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع(٣) الفتن ودرء(٤) الاخطار ــ لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصي على التعليل •

حزن الأبوة

طال اشتياق النبي الى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه في أثر كل زواج ، حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد ، ومن معدن غير المعدن الذي يختار ، لايواء المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات ، فبشرت النبي بعقب لعله غلام ، واجتمع في هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ، ورجاء لا ينتهي بانتهاء الزمان ••"وولد ابراهيم !••

ولد الطفل الذي نظر أبوه اليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين،وتخير له الاسم الذي وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أبا ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد •

ثم مات ذلك الطفل الصغير •
ومات ذلك الأمل الكبير •
مات كلاهما والأب في الستين •• أي صدمة في ختام العمر ؟•

---

١ ــ تحرى وقصد ٢ ــ مشقة ٣ ــ ضرب ٤ ــ دفع •

أي أمل في الحياة ؟·· الدين قد تم ،وهذه الآصرة(١)قد انقطعت فليس في الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والادبار

مات الطفل ولما يدرك السنتين ·

مصاب صغير ان كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين ·

ولكن المصائب في الأعزاء انما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج الى العطف من الكبير المستقل بشأنه ·

وانما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير ··

وانما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والامل يطول في بـداءة الطريق وقد يقصر في منتصف الطريق ·

انما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين ، وأي مصاب أفدح(٢)من مصاب الستين وما بعدها في الامل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه ؟

ما تخيلت محمدا في موقف أدنى الى القلوب الانسانية مـن موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد (٣) ضارعا الى الله ·· نفس قد نفثت(٤)الرجاء في نفوس الألوف بعد الألوف ، وهي في ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح في الدنيا من رجاء ·

وكأني بمحمد كان يومئذ أقرب الى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس اليه ·

كان أقرب الناس اليه زوجاته أمهات المسلمين ، وكن يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن اياه لم يكن في هذا الموقف من المقربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول ، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة وبمقدار ذلك الحب ، ولا لوم عليهن فيما طبع عليه الانسان ، وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه ·

وكان أقرب الناس اليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان

---

١ ـ الرابطة ٢ ـ اثقل واشد ٣ ـ يكتم حزنه ٤ ـ النفث ، النفخ ·

اكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء ، بل أنه أب أرحم من سائر الآباء • ظنوا أن النبي لا يحزن ، كما ظنّ قوم أن الشجاع لا يخاف ، ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قمة المال • لكن القلب الذي لا يعرف قيمة المال لا فضل له في الكرم ، والقلب الذي لا يخاف لا فضل له في الشجاعة ، والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر ،انما الفضل في الحزن والغلبة عليه،وفي الخوف والسمو عليه،وفي معرفة المال والايثار عليه •

وفضل النبي في نبوته وفي أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هي الصلة بينه وبين قلب الانسان ، وبينه وبين الناس ، وأي نبي تنقطع بينه وبين القلب الانساني صلة كهذه الصلة التي تجمع أشتات القلوب ؟

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبي أرسلت اليه : « ان ابنتي قد حصرت فاشهدنا»فأرسل اليهاعليه السلام يقول : « ان لله ما أخذ وما أعطى ، وكـل شيء عنـده مسمى • فلتحتسب ولتصبر » • فأرسلت تقسم عليه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقمنا ، فرفع الصبي في حجر النبي ونفسه تقعقع (١) ، ففاضت عينا النبي صلى الله عليه وسلم ـ فقال له سعد : « ما هذا يا رسول الله ؟ » •

قال : « هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » •

ما هذا يا رسول الله ؟!

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل : في الرحمة ، وفي الآصرة الانسانية ، وغير هذا لن يكون •

ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من العقب ، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده ابراهيم وهو بعده ذاهب الرجاء في الأبناء ؟!••

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه بمولده بمقدار أمله فيه ، واشتياقه اليه •

---

١ ـ تضطرب •

وان العطف الانساني كله ليتجه الى تلك النفس الزكية وهي تتوسع فرحا بالوليد المأمول ٠٠ حلق الأب المتهلل شعر وليده وتصدق بزنته فضة على المساكين ، وذلك هو التوسع الذي وسعه رجل كان أقدر الرجال على وجه البسيطة غير مستثني فيها رؤساء ولا ملوك ٠ جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله درا وجوهرا بعض ما يستطيع في ذلك اليوم الأغر الميمون ٠

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الوجيع يوم الوداع :

خرج الرجل الذي اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف الى حيث يحمل الوليد آخر مرة في حجره الأبوي قبل أن يودعه حجر التراب ، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ! لو كان بك مثل ما بي لهدك ، ولكن انا لله وانا اليه راجعون ٠٠

أي والله ! انها لاحدى الفواقر(١)التي يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال ٠٠

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله ، فنهاه رسول الله وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان ٠

حزن كما ينبغي له أن يحزن ٠٠ أما الحزن الذي لا ينبغي له فهو الصراخ الذي نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ، ويقول الأب الذي انكسفت الشمس حقا في عينيه : « كلا ٠٠ ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! »٠

أو تخسفان ولكن في أكباد المحزونين ، وليس في كبد السماء٠

---

١ ـ الفواقر : الدواهي ٠

أكرم الآبـــاء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟٠٠ كذلك شاء القدر القادر ، وكذلك رأينا محمدا مثال الأب يوم ولد له ابراهيم،ومثال الأب يوم ذهب عنه ابراهيم

ما يتمنى طفل ـ لو جاز أن يتمنى الاطفال ـ أبوة أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة في الحالتين ٠٠

بل كان محمد مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير ٠

أرأيت الى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد في صلاته ؟

ان النبي في صلاته لهو النبي في مقامه الأسنى(١)٠وان النبي في مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره غير معجل،ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ؟ فيقول ان ابني ارتحلني(٢) فكرهت أن أعجله ! أرأيت الى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد ؟٠٠ أرأيت الى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها في مشيته وسمته !

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يختصهـا النبي بمناجاته في غشية وفاته : اني مفارق الدنيا فتبكي ٠انك لاحقة بي فتضحك ٠٠ في هـذا الضحك وفي ذلـك البكاء على برزخ(٣)الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء ٠٠ سرها بنبوته ، وسرها بأبوته ، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء ٠

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء ، وأكرم الآباء ٠

---

١ ـ الرفيع ٢ ـ اي جعلن رالحة له ٣ ـ البرزخ : الحاجز والفاصل بين الشيئين ٠

السيـد

الخير المطبوع

قدمنا الكلام في فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسا ،ومحمد صديقا ، ومحمد زوجا ، ومحمد أبا ، بعد الكلام على عبقريته في الدعوة ، وعبقريته في قيادة الجيوش ، وعبقريته في السياسة والادارة والبلاغة •

وبقي جانب لا تتم بغيره الاحاطة بجوانب النفس الانسانية في العلاقات بينها وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة التي تكون بين الرجل ومن هم دونه ممن يملك أمرهم ، ويقبض على زمامهم ، ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم(١) طبعه وخلقه ونريد بهم الخدم والعبيد الأرقاء ، وهي معاملة لها من الدلالة على الأخلاق . ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى ، لأنها تأتي من طبائع النفس وعقائدها ، ولا تأتي بأمر آمر ، أو بدعوة داع فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين.لا يستطيع أحدهما أن ينساها زمنا طويلا الا ذكره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه ،القادر على مقابلة الجفاء بمثله،ولو في طوية نفسه •

والرئاسة قد تخول(٢)الرئيس حق السيطرة ، وتفرض على المرؤوسين واجب الطاعة ، غير أنها قل أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب،أو خشيةالانتفاض،يحسب له الرئيس كلالحساب أو بعض الحساب•والأب يعطفعلى بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم،لما ركب في طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده ، وان اختلف الآباء في صفات العطف،وفي استحقاقهم لبر الأبناء •

وكذلك الزوج:يرفق بزوجته،وليس له كل الاختيار في رفقه لما يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ، ويستغني بها أحيانا عن القوة والرئاسة ••

---

١ ـ موانع وحوافظ ٢ ـ تعطيه •

أما العبد المملوك، فلا عاصم له غير ما في نفس سيده من رحمة وخير، وانه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر في هذه الدنيا. بل انها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الالهية ، فاذا تجاوزتها الى طواعية في الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف، ولم يطلبها العبد نفسه، فتلك هي الرحمة في أصدق معانيها ، وهي أدل الدلالات على لباب (١) الأخلاق .

ولقد علم القارىء من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الاسلامية، وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول ، وليس لنا أن نتصدى له بعد من فصلوه وكرروا الكتابة فيه ..

وانما نقصد بهذه الفصول الى غرض قدمناه على كل غرض في موضوعه، وهو بيان البواعث النفسية التي توحي الى النبي أعماله ومعاملاته، ولا شك في مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهي من نواهيه، الا أن الخير المطبوع شيء والخير المأمور شيء آخر، والخير المطبوع هو الذي قصدنا الى بيانه بكل ما بيناه . ففي كتابتنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم : لا ننوي أن نفصل أحكام الاسلام ،وأوامر القرآن في هذه المعاملة ، وانما ننوي أن نبين مزية محمد على جميع السادة في هذا الباب، وهي مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود ، ولا للذين يرتفعون الى أرفع مرتبة تفرضها هذه الأوامر والحدود .

الاسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الاشارة بداءة الى مزية الاسلام بين الاديان الاخرى في مسألة الرق، والاستعباد، لأن أناسا يخلطون بين اعتراف الاسلام بنوع من الرق ، وبين اعتباره مسئولا عن وجوده في الزمن القديم، ويردون شيئا من ذلك الى عمل النبي عليه السلام . فمن الواجب أن نذكر أولا، أن دينا من الأديان الأخرى لم يأمر بالغاء الرق في شكل من أشكاله، سواء رق الحروب

---

١ ـ اللباب : الخالص .

أو رق النخاسة(١)والبيع والشراء،وان أناسا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه(٢)واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التي يقترفها(٣)المسترقون،وجاء بعض أحبار(٤) الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية ، انفة لها أن يدنسها(٥)لؤم العنصر الذي وسموا به الرقيق •

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادي القديم في أساسه كان مرتبطا بالاسترقاق أشد الارتباط ، فكان الغاؤه طفرة(٦)واحدة أقرب شيء الى المستحيلات،ولم يكن أنفع في علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه وهو ما شرعه الاسلام•فالاسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى في الحروب،ثم حسن اطلاقهم وسماه منا(٧)وعفوا يشكر فاعله عليه: « فاما منا بعد واما فداء(٨) » •

ثم أجاز للأسير أن يشتري نفسه ، وأوجب حريته في حالات كثيرة يرجع معظمها الى ارادته هو ، اذا استطاع •

والحق الذي لا مراء فيه أن صنيع الاسلام هذا كان أجمل صنيع لتيه الأرقاء من دين أو شريعة ، وانه اذا كان هناك تمهيد لالغاء الرق بتة(٩)،فذلك هو تمهيد الاسلام دون غيره ، وهو أقصى ما كان مستطاعا في نظام العالم القديم : نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الاحرار ، كما جاء في بعض الاحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية •

وقد نظر في مسألة الرق عقل من أكبر العقول التي نبغت في أمة اليونان بل في الأمم كافة ــ ونعني به أرسطو ــ فأقره وأوجبه لأنه جعله سنة من سنن الفطرة ، وقيدا لا فكاك منه لطائفة من الناس ، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها ، فلا غنى لها عن سيد ولا موئل(١٠) لها من وال •

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبي عند هذا الحد في معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن الى الارقاء في زمانه ،

---

١ ــ النحاس ، بائع الدواب والرقيق ٢ ــ اجازوه ٣ ــ يرتكبها ٤ ــ علماء ٥ ــ يوسخها ٦ ــ الطفرة: الوثبة ٧ ــ من عليه : انعم ٨ــ الاية ٤ من سورة محمد ٩ــ قطعا ١٠ــ ملجأ•

الا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قيد(١)شعرة حين نقول : ان كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التي ظفر بها خدم محمد وعبيده،ومن من الآباء يحسن الى أبنائه خيرا من احسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه اسامة ؟

فقد أعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بعقيلة(٢)من أقرب قريباته اليه،وأولاهن بحدبه(٣)وتوقيره ،وهي التي آها نعد ذلك أهلا لزواجه بها،وحظوتها(٤)لديه ٠فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم يعطه المساواة في العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة الاجتماعية التي يرتفع اليها السادة.ولا يشبتهاشيء كما يشبتهاشرف المصاهرة ثم حفظ هذا البر الأبوي لابنه أسامة،فولاه جيش الشام وهو دون العشرين،وفي الجيش طائفة من أكابر الصحابة.فلو كان للنبي ولد في سنه لماتكفل به أحسن من هذه الكفالة.ولا ميزه أشرف من هذا التمييز

نعم لم نعد(٥)الواقع،ولا تجوزنا في الوصف،حين قلنا : ان الابن لا يتمنى خيرا من معاملة محمد لعبده،فقد عرف زيد فعلا أن محمدا خير من أب،وخير من أسرة كاملة يرجع اليها وترجع اليه،فبقي معه ولم يذهب مع أبيه،ولم يبق معه ايثارا لبركة النبوة،فان محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله ، وانما بقي معه لأنه الانسان الذي يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الانسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين ٠

ان حب الوالد لوليده وراثة ألوف الالوف من الأجيال ، بل وراثة الحياة في جميع الأحياء ، فاذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوي من القوة ، فقد بلغ الذروة(٦) العليا التي لا متسنم (٧) فوقها لراق ٠٠

لقد خيرت شريعة الاسلام المحسنين بين المن واعتاق الأسرى، وبين الفداء بالمال أو المبادلة ، فأيهما اختار المالك فهو احسان٠

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه٠فأعتق كل أسير صار الى حوزته(٨)،وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التي شملت كل منتم اليه ، ولم يستبح في غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من

---

١ ـ أي قدر ٢ ـ العقيلة ، كريمة الحي ٣ ـ بعطفه ٤ ـ علو نذلتها ٥ ـ أي لم نتجاوزه ٦ ـ ذروة الشيء ، قمته واعلاه ٧ ـ تسنم الشيء : علاه ٨ ـ كل من ضم شيئا الى نفسه فقد جازه ٠

ضرب وتعزير ، وربما كانت كلماته للخادم المخالف أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب ، ومن ذلك : قصة الوصيفة التي أرسلها فأبطأت في الطريق،فما زاد على أن قال لها حين عادت : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! » ٠

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشيء الكثير ٠ ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه في معاملة وصيفة تهمل أمره ، وهو الذي لا يُهمل له أمر عند سادة الشرفاء ٠٠

وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة،فانحرف(١)الى صبيان يلعبون في السوق، «واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابي من ورائي ، فنظرت اليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! اذهب حيث أمرتك ! » ٠

كلمة أمر لا يقولها لخادمه الا وقد ناداه مدللا،وقابله ضاحكا، كأنه يعتب على قرين(٢)،وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام٠

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده،فكان يجاملهم ، ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافىء عليها،ويلبي دعوتهم اذا دعوه الى طعام ،ويوصي بهم قائلا:« هم اخوانكم وخولكم(٣) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل،ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ،فان كلفتموهم فأعينوهم(٤)» و «اتقوا الله في الضعيفين : النساء والرقيق» ٠

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة في هذا المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم٠٠فالبر بالخادم عطف عليه،أما البر بالخدمة فارتفاع بالخادم الى مقام السادة،حيث لا يأنف(٥)السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم،وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه،وذلك هو دأب(٦) النبي الذي جرى عليه في بيته وبين أهله وخدمه ٠

فقد كان يحلب شاته،ويخصف(٧)نعله ويخدم نفسه،ويعلف ناضحه – أي البعير الذي يستقي عليه الماء – فاذا رأى الخدم لهم عملا في البيت يماثل عمل سيدهم ومالك أمرهم ،فتلك هي

---

١ – انحرف عنه : مال وعدل ٢ – صاحب او صديق ٣ – الخول : اسم يقع على العبد والامة ٤– ساعدوهم ٥– اي لا يستنكف ٦– الداب: العادة والشان ٧– اي يصلحه ٠

المساواة التي تمسح ضير(١)الخدمة وتجبر كسرها ، ولا تقتصر على العطف والرحمة •

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين.فما كان في رجالات المسلمين كابر ابن كابر الا كان يتمنى أن يؤدي لنبيه تلك الخدمة التيتطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه.وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة ، والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد،فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذييجلس الى قدمي أستاذه،حبا لا خنوعا(٢) وتوقيرا(٣) لا مذلة.وأدبا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب •

وعلى هذا كان النبي عليه السلام يكره أن تقبَّل يداه مخافة أن تجري العادة بهذا بينالناس،فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع•قال أبو هريرة رضي الله عنه : « دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح••فوثب الوزان الى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها،فجذب يده وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها.ولست بملك،انما أنا رجل منكم،ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » •

ولقد يصح أن يقال أن حصة النبي من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه ، وأن تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم ، وانه جعل الخدمة على سنته ضربا من توزيع الأعمال ، أو ضربا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه : « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » •

هذه كلمة السيد بامامته ، السيد بنسبه ، السيد بسلطانه ، السيد بالتفاف القلوب حوله ، السيد بسيادته على سره وعلانيته ورأيه وهواه • ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد ، وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئا لا غضاضة (٤) فيه على صغير ولا خنزوانة(٥)فيه لكبير•انما هو تقسيم أعمال ، وتعاون بين اخوان ، وان لم يكن تعاونا بين أمثال •

---

١ ـ ضررها ٢ ـ اي مهانة وذلا وخضوعا ٣ ـ احتراما ٤ ـ ذلة ومنقصة ٥ ـ تكبر،

العـابد

الطبائع الأربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ، وطبيعة العمل والحركة ...

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس ، وقلما تجتمع في انسان واحد على قوة واحدة،فاذا اجتمعت معا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها في القوة والدرجة على شيء من التفاوت .

طبيعة العبادة : تدعونا الى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها : تدعونا الى الحلول من الكون في أسرة كبيرة

وطبيعة التفكير : تثير في نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء: تدعونا الى الحلول من الكون في معمل كبير .

وطبيعة التعبير الجميل : تشب النار المقدسة في سرائرنا ، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب حسناء من صنع قرائحنا(١)وألسنتنا ، أو صنع قرائحنا وأيدينا ، أو صنع قرائحنا وأوصالنا(٢) ، تدعونا الى الحلول من الكون في متحف كبير .وطبيعة العمل والحركة : تعلمنا كيف تتأثر بدوافع الكون،وكيف نؤثر فيها،وتجذبنا اليها فنستمد منها القدرةالتي تجذبها الينا : تدعونا الى الحلول من الكون في ميدان صراع ، ومضمار (٣) سباق .

وقلما تشعر بالكون بيتا لأسرة ، ومعملا لباحث ، ومتحف فن ، ومضمار سباق في وقت واحد . انما هي حالة من هذه الحالات تجب(٤)سائر الحالات ، وقد تلحقها بها الحاق التابع بالمتبوع ، والمساعد بالعامل الأصيل .

---

١ ـ القريحة : اول كل شيء ، ومنك . طبعك ٢ ـ مفاصلك ٣ ـ غاية الفرس في السباق ٤ ـ الجب : القطع .

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعا على نحو ظاهر في كل طبيعة : كان عابدا،ومفكرا،وقائلا بليغا ، وعاملا يغير الدنيا بعمله • ولكنه عليه السلام كان عابدا قبل كل شيء، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجية(١) فيه • تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه • فولد في بيت السدانة(٢) والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بايمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ••

★ ★ ★

ونشأ يتيما من طفولته،فانطوى على نفسه،وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر الى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا،الجانح(٣) الى الطهر واستقامة الضمير وتكوّن في بنيته عابدا من صباه •

قيل : انه في الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ في تفسيرها ، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندري ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتعجل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمي أو تاريخي محقق يستند اليه •

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون ليلتقي الوحي الالهي ، وان لهذا التكوين استعدادا لا بد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تتهيأ له في أيام ولا في شهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه الا اذا تمت أهبتها له والمولود في صلب أبيه ، ولا نقول في المهد أو في الرضاع • فمن الأقوال المتواترة : أنه كان عليه السلام اذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ، وكرب لذلك وتربد(٤)وجهه،وأخذته البرحاء(٥)حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان في اليوم الشاتي ، وسمع عند وجهه كدوي النحل ، وقد يصدع(٦)فيغلف رأسه بالحناء•وقد شاب فقال : «شيبتني هود وأخواتها» وعدد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم •

---

١ ـ طبيعة ٢ـ خدمة الكعبة ٣ ـ أي المائل ٤ ـ اغبر ٥ ـ برح به الامر تبريحا : أي جهده ٦ ـ يصيبه الصداع •

وليس هذا من خليقة كل بنية انسانية ، انما هو خليقة البنية التي تتلقى وحيا ، وتستوعب سرا ، وتهتز لنبأ عظيم ٠

صفة العابد

وكانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحه لتلقي الوحي والنبوة،فكان حسا كله،وحياة كله ٠ يراه من ينظر اليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية ، وكل نبأة خفية ٠ يسرع في مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه،ويفكر فلا يزال يطرق الى الارض،أو يرفع بصره الى السماء،ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه ، ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه(١)،ويمتليء عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام :حس مرهف يدني اليه ما وراء الحجاب،ويوقظ سريرته لأخفى البواطن ، ويجعله أبدا في حالة قريبة من حالة الوحي حيثما هبط الوحي عليه ٠

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل،وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض النساك(٢) الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم الا عكوف (٣) الصومعة(٤) ، أو رحلة الزهادة ٠

كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين ، أو عجبا من بدائع الكون التي ألفها الناس،لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في خلق جديد ٠

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة ٠٠

وهي هي دهشة العين التي أبت أن تكل(٥) من الالفة ، لأنها أبدا في نظر جديد ، أو في نظر الى كل منظور كأنه مخلوق جديد ٠

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام: عجب من بدائع الكون في كل نظرة كأنه يراها لأول مرة،وتفكير في الخلق ينتهي الى الايمان لأنه يبدأ بالعجب ، ولا يزال أبدا بين العجب والايمان ٠

---

١ ـ ما ارتفع من خديه ٢ـ العباد ٣ ـ عكف : حبس ٤ـ بيت عبادة للنصارى
٥ ـ كلـه : أعياه ٠

وأن محمدا باعث الايمان الى القلوب. لقد كان يجدد ايمانه كما يجدد عجبه كل يوم. وكان يدعو الله فيقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».. وقيل له في ذلك فقال: «انه ليس آدمي الا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»... حركة متجددة في الحس وفي الفكر وفي الضمير.

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع.

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع.

وانما هو تفكير من ينتظره العمل، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل(١) في الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك: ثلث أيامه لربه وثلثها لأهله، وثلثها لنفسه. وما كان في فراغه لنفسه ولا لأهله شيء يخرجه من معنى عبادة الله، والاتصال بالله، على نحو من التعميم.

★ ★ ★

بهره الجمال من صباه: جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء، وجمال الوجوه التي يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير. انما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال. وانما جمال الله هو الذي قد كان يدعوه اليه، كلما نظر الى خلق جميل. فكر في الخلق فآمن بالخالق، واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر. فقال: «ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الارض؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فاذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله ورسوله».

تلك هي نهاية التفكير التي ينتهي اليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل، وتعليم الناس عبادة وعملا، ولم يخلق ليوغل في الفروض، ويتقلب بين الشكوك..

وانا لنسأل مع هذا: الى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا في شكوكهم وتطوحوا(٢) بها الى قصوى(٣) ما تفرضه الفروض؟

---

١ ـ قد غل في الارض: اذا سار فيها وابعد ٢ ـ أي تاهوا وذهبوا ٣ ـ أبعد.

الى أين انتهى «كانت» Kant أمام المفكرين في هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث ، ان لم نقل الحديث والقديم ؟

انتهى الى أن النفس نفسان ، والوجود وجودان : نفس حسية ونفس حقيقية ، ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود ·

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقي عندما ترجع الى قرارها ، ثم لا تتخطى بادراكها عالم الباطن الى عالم المحسوسات التي يتناولها التعبير وتصدير الكلام ·

★ ★ ★

أليس معنى هذا أن ايمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان ؟ وأن المرجع غاية المرجع انما هو الايمان ولا شيء غير الايمان ؟ بل حتى البرهان الاكبر على وجود الله نعود اليه لنسأله ونسمع منه فماذا يقول ؟

يقول لنا : ان العدم معدوم ، فالوجود اذن موجود ، وانك اذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الايمان به في صفته المثلى ، لأنك تحتاج الى مقتض لفرض النقص ، ولا تحتاج الى مقتض لفرض الكمال في وجود لا يتطرق اليه العدم ·

وما الفارق بين الايمان بالله ، والايمان بالوجود في صفته المثلى ؟ هنا ينتهي الايغال في الفروض والشكوك ·

وهناك انتهى الايمان ، بغير ايغال في فروض ولا شكوك ··

ألا تتلاقى النهايتان؟··أو لا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ، ثم لا يخطو لها قدما وراء خطر الايمان ؟

لهذه السنة التي استنها النبي عليه السلام في عبادته الروحية كثرت وصاياه بادمان التفكير في خلق الله ، واجتناب التفكير في ذات الله·فقال في حديث : « تفكروا في آلاء(١)الله ، ولا تفكروا في الله » وقال في هذا المعنى : « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا » وقال في حديث قدسي : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فعرفت » أو كما جاء في رواية: « فخلقت الخلق ، فبي عرفوني » ·

---

١ ـ أي نعمة ·

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها : أن التفكير في حقائق الوجود هو طريق الوصول الى الله ، ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة: ايمان بالوجود الابدي في صفته المثلى، وتفكير في حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها، وذلك قصارى(١) ما عند العقيدة ، وقصارى ما عند الفلسفة ، وقصارى ما عند العلم اذ يقف العلم عند حده ، وهذا هو العلم الذي فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة ، وقال النبي في رواية ابن عباس : « انه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله » لأنه سبيل الوصول الى الله ·

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبي ، وأن النبي يعلم جميع الناس الايمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد ، فهم يضلون في تيه الشكوك والمناقضات التي يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون الى هداية أقوم وأسلم من هداية الايمان بالخالق والتفكير في الخليقة (٢) ، فاما هذه الهداية ، واما الضلال الذي لا هداية وراءه، وليس لنبي أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال·

★ ★ ★

وقد تكلمنا في هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التي توحي اليه « عبادته الروحية » ·

أما عبادة الشعائر الظاهرة : فهي عبادة الاسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلي النبي ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة على الشريعة التي يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب الى نفسه في هذه العبادات ما ليس يطلبه الى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التي أثرت عنه في كل عمل من أعماله وكل سجية(٣)من سجاياه·

---

١ ـ أي غاية ٢ ـ المخلوقات ٣ ـ السجية : الخلق والطبيعة ·

« فكان أخف الناس صلاة على الناس ، وأطول الناس صلاة لنفسه » وربما قام الليل أكثره أو أقله ، ولا يدين(١) أحدا بالتهجد كما كان يتهجد ، أو بالصلاة والصيام كما كان يصلي ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا في العبادة فيصبحوا كالمنبت(٢) « لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ٠

لأن الناس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة ، كما يتلقون الامر بفريضة واجبة ، فهم في حاجة الى الرفق والتيسير ٠

أما النفس المفطورة (٣) على العبادة فالصلاة عندها،مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء ٠

★ ★ ★

وكان محمد « اذا حزبه (٤) أمر صلى » ٠

كذلك اذا حزب الأمر نفسا ، رجعت الى من تحب ، فخف وقرها(٥) ، وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة ، واهتدت بعد حيرة ٠

ومتى وجدت النفس « فرحة اللقاء » في الصلاة ، فلا اجهاد فيها لجسد ولا تضييق فيها لوقت ، بل فيها الترويح عن الجهد ، والتنفيس عن الضيق ، ولا سيما اذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلها ونهارها في الصلاة والعبادة ثم تؤدي عملها ، وتفكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بني الانسان ٠

---

١ ـ أي يجازي ، والمراد : يطالب ٢ ـ الذي أهلك راحلته من الجد في السير ، فانقطع في وسط الطريق ٣ ـ المجبولة والمطبوعة ٤ ـ نابه واشتد عليه ٥ ـ حملها ٠

الـرجـل

المختـار

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت(١) الأنباء بأوصافهم السماعية ، وأوصافهم المرسومة في الصور والتماثيل ، غير أننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكي للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكي للمتفرسين شيئا من طبائعهم التي تنم (٢) عليها سيماهم ، الا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبي في كل حالة من حالاته ، وكل لمحة من لمحاته : في سيماه وفي هندامه ، وفي شرابه وطعامه ، وصلاته وصيامه ، وحله ومقامه، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا (٣) من العطف والتدين ، وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض، لم يختلف الوصف مرة الا كما تختلف نظرة الناظر الى وجه واحد بين ساعة وأخرى • فيقول غير ما قال آنفا (٤) ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين ••

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة : أن النبي ، عليه السلام كان مثلا نادرا لجمال الرجولة العربية ، كان كشأنه في جميع شمائله مستوفيا للصفة من جميع نواحيها ، فرب رجل وسيم غير محبوب ، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب ، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب الناس،ولا يعطف

---

١ ـ أي تتابعت ٢ ـ المراد : تكشف وتدل ٣ ـ خليطا ٤ ـ أي سابقا •

عليهم،ولا يبادلهم الولاء والوفاء،أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس ، فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه،وكان نعم المسمى بالمختار.

اذا نظر اليه الناظر رأى رجلا أزهر(١) اللون، عظيم الهامة(٢) مفاض(٣) الجبين، سبط(٤) الشعر، أزج(٥) الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب، أدعج(٦) العينين في كحل، أقنى(٧) الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم(٨) العرنين، أسيل الخد، ضليع(٩) الفم، غزير(١٠) اللحية ، جميل الجيد(١١)، عريض الصدر، واسع ما بين المنكبين، ضخم الكراديس(١٢)، طويل الزندين(١٣)، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين ، لا بالمشذب ولا بالقصير ، مربوعا أو أطول من المربوع ، معتدل الخلق متماسكا لا بالبدين ولا بالنحيل .

واذا أقبل يتحرك نظر اليه الناظر فرأى رجلا يصفه الأقدمون بأنه « حي القلب » ويصفه المحدثون « بالحركة الحيوية » .

يمشي فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صبب ،ويرفع قدمه فيرفعها تقلعا كأنما ينشط بجملة جسمه،ويلتفت فيلتفت كله ، ويشير فيشير بكفه كلها،ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بابهام اليمنى وراحة اليسرى،ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه ، وربما حرك رأسه وعض شفته في أثناء كلامه وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء:أشد حياء من العذراء ، نضاح المحيا،اذا كره شيئا عُرف ذلك في وجهه واذا رضي تطلقت أساريره وتبين رضاه .

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء في هذه البنية الجميلة فكان عليه السلام يصرع الرجل القوي ، ويركب الفرس عاريا فيروضه على السير،ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو.قالت عائشة رضي الله عنها:«خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ، فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك . فسابقته فسبقته ، فسكت .

---

١ ـ ابيض مشرق الوجه ٢ ـ الرأس ٣ ـ واسع ومستوى ٤ ـ مسترسل غير جعد ٥ ـ الزجج : دقة وطول في الحاجبين ٦ ـ واسع العينين أسودها ٧ ـ محدودب ٨ ـ الشمم: ارتفاع في قصبة الانف مع استواء اعلاه ٩ ـ اول الانف مما يلي الفم ١٠ ـ كثير شعرها ١١ ـ العنق ١٢ ـ كل عظمين التقيا في مفصل ١٣ ـ الزند : موصل طرف الذراع في الكف،

« حتى اذا حملت اللحم ، وكنا في سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا • ثم قال تعالي آسابقك، فسابقته فسبقني فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك ! » •

وهذا بعد أن قارب الستين • انها لمسابقة تنم على فتوة (١) الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال •

وتجلت هذه الأريحية (٢) في علاقته بكل انسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه • فرقت حاشية جده حتى عطفت على كل أسى ، ورحمت كل ضعف ، وامتزجت بكل شعور •

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « دخل النبي عليه السلام على أمي فوجد أخي أبا عمير حزينا، فقال: يا أم سليم ! ما بال أبي عمير حزينا ؟

فقالت : يا رسول الله مات نغيره • تعني طيرا كان يلعب به •

فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير ! • • ما فعل النغير ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك » •

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت اليها ، فالسيد يزور خادمه في بيته ، ويسأل أمه عن حزن أخيه، ويواسيه في موت طائر ، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه •

ومثل هذا : عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبد الله الخمار الذي لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه •

قبول للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة ، لا يقيل منها أحدا ولا يراه النبي فيتمالك أن يبتسم ، وربما قصد النبي ببعض هذه الدعابات لطمعه في حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه : جاء اعرابي الى رسول الله ، فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : « لو نحرتها فأكلناها ؟ فانا قد قرمنا (٣) الى اللحم ، ويغرم النبي صلى الله عليه وسلم حقها » فنحرها نعيمان ، وخرج الاعرابي فرأى راحلته فصاح :

١ ـ أي قوة ٢ ـ سعة الخلق ٣ ـ اشتهيناه واشتقنا اليه •

« واعقراه يا محمد ! ·· » فخرج النبي يسأل : « من فعل هذا ؟ » قالوا : «نعيمان» ·· فاتبعه النبي حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد ، فأشار اليه رجل ورفع صوته : «ما رأيته يا رسول الله» وهو يشير باصبعه الى حيث هو، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال : «ما حملك على ما صنعت؟» قال : «الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمروني ! » فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم ثمن الراحلة ·

ونعيمان هذا هو الذي باع عاملا لأبي بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل الى النبي لا محالة ·

سافر أبو بكر الى بصرى تاجرا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده ، فجاءه نعيمان، وطلب اليه طعاما فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر ، فأقسم نعيمان ليغيظنه، وذهب الى قوم فقال لهم : « تشترون مني عبدا لي ؟ » قالوا : « نعم ! » قال : « انه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده · أنا رجل حر ·· الى أشباه ذلك · فان كان اذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا علي عبدي ·· » قالوا : « لا · بل نشتريه ولا ننظر في قوله » فاشتروه منه بعشر قلائص(١)، ثم أداهم اياه فوضعوا عمامته في عنقه، ولم يحفلوا بقوله، وجعلوا كلما قال لهم : « أنا حر ! انه يتهزأ ولست أنا بعبده » سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة(٢) ·· فلما جاء أبو بكر سأل عنه ، فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه · ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان ، وجعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه ·

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور ، بل بأعظمها جدا ووقارا : وهو اقامة الأديان ، واصلاح الأمم، وتحويل مجرى التاريخ ثم يطيب نفسا للفكاهة، ويطيب عطفا على المتفكهين ، ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ · فللابد صرامة(٣) تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب

---

١ ـ القلوص من الابل : الشابة ، او الباقية على السير ، او اول ما يركب من اناثها ٢ ـ الخصومة ٣ ـ حدة وشدة ·

الحياة ، ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق الا دلت على شيء من ضيق الحظيرة(١)ونقص المزايا وان نهضت بالعظيم من الأعمال • فاستراحة محمد الى الفكاهة : هي مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التي شملت كل ناحية مـن نواحي العاطفـة الانسانية،وهي المقياس الذي يبدي من العظمة ما يبديه الجد في أعظم الأعمال •

وكان محمد يتفكه ويمزح ، كما كان يستريح الى الفكاهة والمزاح،وكان دأبه(٢)في ذلك كدأبه في جميع مزاياه : يعطي كل مزية حقها،ولا يأخذ لها من حق غيرها،أو يعطي الفكاهة حقها ، ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة•فعبد الله الخمار كان يجد من قلب النبي عطف القلب الكبير على نقيصة(٣) الضعف في الرجل السكير ، ولكنه كان يجد من تأديب النبي جزاء الشارب الذي يخالف الدين ،ويخل تماديه بالشريعة • عطف يجمل بالنبي على أحسن ما يكون ، لأنه يجمل بالانسان على أفضل ما يكون •

واذا مزح محمد فانما كان يعطي الرضى والبشاشة حقهما ، ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة••فكان مزاحه آية من آيات النبوة، لأنه كان كذلك آية من آيات الانسانية ، ولم يكن بالنقيض الذي يستغرب من نبي كريم ••

قال لعمته صفية : لا تدخل الجنة عجوز !••فبكت،فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول : « انا أنشأناهن انشاء•فجعلناهن أبكارا • عربا أترابا»••ففهمت ما أراد وثابت(٤)الى الرضى والرجاء • وطلب اليه بعضهم أن يحمله على بعير ، فوعده أن يحمله على ولد الناقة ، فقال يا رسول الله ! ما أصنع بولد الناقة ! فقال : وهل تلد الابل الا النوق ؟

وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهي عجوز : « غطي قناعك يا أم أيمن ! » •

وسمعها في يوم حنين تنادي بلكنتها الأعجمية : « سبت الله أقدامكم ! » فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغي اليها ، ويداعبها

---

١ ـ اي الخير ٢ ـ عادته وشأنه ٣ ـ عيب ٤ ـ رجعت •

بين نذر الحرب وصليل(١)السيوف،وأقبل عليها يقول : «أسكتي يا أم أيمن فانك عسراء اللسان ! » فكانت هذه الدعابة في ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت (٢) سيد الفصحاء على تلك اللكنة البريئة ٠

أريحية محمد

هذه الأريحية الفياضة هي الحلية الباطنة التي تمت بها حلية محمد في عيون الناس ، وهي جواب محمد لما كان له في قلوبهم من حب واعظام،أو هي الآسرة التي تجمع بين قلبه وتلك القلوب في نطاق الأسرة الانسانية : يحبونه ويحبهم،ويشعرون به ويشعر بهم ، وليس قصارى الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب ٠

سمت يقابل العيون بجمال
وأريحية تقابل النفوس بجمال

وقد سرت هذه الأريحية في صميم طويته ، فامتزجت طواعية وارتجالا بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمكسورين٠فكان أحرص انسان على جبر القلوب ، وتطبيب الخواطر ، وتوخي المؤاساة ، واجتناب الاساءة ، يتفقد أصحابه كبارا وصغارا ويسأل عنهم ، ويتحدث الى ذوي الأقدار ، وعامة الناس ، فلا يحسب صغيرهم أن أحدا أكرم عليه منه ، ويتحدث اليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وان طال،واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس،ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها ٠٠

ومن سننه التي اتبعها ، وأوصى باتباعها ، أن يجيب دعوة من دعاه ، ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفي ذلك يقول من وصاياه في آداب الولائم والمحافل:« اذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابا ، فان أقربهما بابا أقربهما جوارا ،وان سبق أحدهما فأجب الذي سبق » ٠

---

١ ـ أي صوتها ٢ ـ الربت : ضرب اليد على جنب الصبي قليلا لينام ٠

يبدا من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه،وربما خفف صلاته اذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية ٠

يتقي الغضب جهده ، ويعالجه اذا أحسه بعلاج من الروح ، فيقبل على الصلاة والتسبيح ،أو بعلاج من الجسد ، فيجلس اذا كان قائما ، ويضطجع اذا كان جالسا ، ويأبى الحركة التي ينزع اليها وهو غضبان ٠

آدابه الاجتماعية

وكان في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب في كل زمان ، فلم ير قط مادا رجليه بين أصحابه ، وتعود كلما زار أحدا ألا يقوم حتى يستأذنه،ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في اناء ، واذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وربما نهض بالليل فيشوص(١)فاه بالسواك ، ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم ، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه:«اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار»٠

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور،فيأكلون في جيل بأصابع اليد ، ويأكلون في الجيل الآخر بالشوكة والسكين ،ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض ، وهي عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع ،فلا ضير(٢) على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل ، وانما الضير فيما يتناول الطبع السليم ، والذوق الحسن ، وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب في كل أمة وفي كل زمان ٠٠فلم يكن يهفو(٣) في حق أحد ٠ ولم يكن أحد يشكو من محضره بانصاف ، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل في أصدق معانيه ٠٠

صاحب هذا السمت رسول

وصاحب هذه الآداب رسول ٠٠

---

١ ـ ينظف ٢ ـ ضرر ٣ ـ أي يخطيء ٠

وخلاصة سمته وآدابه: أنها سماحة في الانظار ، وسماحة في القلوب. فالسماحة، هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هي الصفة التي ترقت في محمد الى ذروة (١) الكمال .

ومن يكون الرسول ان كان لا بد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟ الرسول: هو الذي له وازع من نفسه في الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس، لأن عمل الرسول الاول أن يقيم للناس وازعا يأمرهم بالحسن، وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما بينهم، ومن كان هذا عمله الاول فينبغي أن تكون صفته الأولى – بل صفته الكبرى – أن يستغني عن الوازع، وأن يغني الناس عن محاسبته وطلب الحق منه، وهذه هي السليقة (٢) الشاملة التي سرت في خلائق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله ، فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه في رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير .

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول، لأنها علامة من داخل السريرة .. وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفارق من تعروه (٣) ..

وليس للنوع البشري مقياس صحيح يقاس به محمد ، فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل .

يعطيه هذه المرتبة من يدين بالاسلام، ومن يدين بغير الاسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل .

فليس للنوع البشري أصل من أصول الفضائل يرمي الى مقصد أسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التي كان محمد قدوة فيها للمقتدين .

عزيمة الزهد والايمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد في نعمة العيش وهي بين يديه .

فقد ثبت أن محمدا لم يستمتع بدنياه ، ولم يشبع ثلاثة أيام

---

١ – اعلاه ٢ – الطبيعة ٣ – تغشاه .

تباعا حتى مضى لسبيله ، وقالت عائشة رضي الله عنها : « لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك » فيقول : « يا عائشة ! مالي وللدنيا ... اخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا » ..

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها : « ... فاذا جرة فيها شيء من شعير ، واذا رحى وبرمة وقدر وكعب ،فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة،وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه ! » .

رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال له : « يا رسول الله ! قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير،وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله » فاستوى جالسا وقال:« أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ! ».

ولقد مات ودرعه مرهونة ، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار ، وهو قليل ..

فما عسى أن يقول قائل في قدر هذا الرجل ــ آمن به أو لم يؤمن ؟

أيقول : انه رسول ، وانه كان يعلم أنه رسول ، فصدع بأمر ربه واحتمل ما احتمل في سبيل طاعته ، وفي سبيل اصلاح خلقه؟

تلك اذن منزلة الأنبياء التي تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله ؟

أم ينكر النبوات ويقول : انه رجل أراد الخير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن الله مطالبه برسالته الى خلقه،ولكنه تجرد لهدايتهم في غير مأرب(١) يناله ، ولا نعمة ينعم بها،لأنه لا يطيق لهم شرا ، ولا ينتظر في الدنيا ولا الآخرة من جزاء ؟

من قال هذا وغض (٢) من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب، ويغار على هدايتهم تلك الغيرة فهو انسان ممسوخ الضمير.

---

١ ـ مقصد وغاية ٢ ـ اي اخفض .

فمحمد الرجل في المقام الأول بين الرجال : في المقام الأول بخلقته ، وفي المقام الاول بنيته ، وفي المقام الاول بعمله ، وفي المقام الاول بالقياس الى المشبهين له في دعوته ٠

ونرى عن يقين انه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان الا استزادة لأسباب الايمان ، وشحذا (١) للعزيمة في سبيل ذلك الايمان ، واعذارا الى الله والى الناس فيما تجرد له من اصلاح ٠

لأن محمدا لم يكن كارها لطيبات الدنيا ، ولا حاضا (٢) لأحد على كراهتها والاعراض عنها ٠ فاذا قنع بما قنع فعل ذلك ليرتفع بايمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره ٠٠ كأنه يخشى اذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضا من الأغراض التي نظر اليها حين نظر الى هداية الناس ٠

فليكن الايمان اذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ٠٠ وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله في هدايتهم غير منقوص ولا مظنون ٠

اذا هدى الناس ، واستمتع بالعيش ، خشي أن يحسب المتعة من آماله ٠

واذا هدى الناس وكفى ، كانت الهداية هي جملة الآمال وغاية الآمال ٠٠ فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من ايمانه ، وليتم بذلك حسابه لنفسه ، وحسابه عند الله ، وحسابه بين الناس ٠

وما حساب أولئك جميعا ؟

حساب رجل هو وازع نفسه في السر والعلانية ، وهو أحق الناس أن يقيم وازعا للناس ٠

رجلا ولا كمثله الرجال ٠

---

١ ـ أي مضاء ٢ ـ حضه : أي حثه ٠

محمـد في التـاريخ

اتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدا في عبقريته ، أو محمدا في نفسه ، أو محمدا في مناقبه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ، ومن لا يدين له برسالة •

ونريد بهذا الفصل ــ وهو خاتمة الكتاب ــ أن نذكر كلمة موجزة عن محمد في التاريخ ، أو محمـد في العالم وأحداثـه الخالدة ، وهو بحث يغنينا فيه الايجاز ، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه •

محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة ، وفاقا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الانسان في عصور الحضارة •

فما مكان هذه العظمة في التاريخ ؟ ما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تعاقب (١) العصور ؟

مكانها في التاريخ : أن التاريخ كله بعد محمد متصـل به مرهون بعمله ، وأن حادثا واحدا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله •

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا في العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلـك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الأوربيين والآسيويين والافريقيين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب الحاضرة التي نشهدها في هذه الأيام، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في

---

١ ـ أي توالـي •

الدنيا كما وقعت لولا ذلـك اليتيم الذي ولـد في شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة واحدى وسبعين سنة من مولد المسيح ٠

كان التاريخ شيئا فأصبح شيئا آخر ، توسط بينهما وليد مستهل في مهده بتلك الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام الى هذه الغبراء (١) ٠٠ ما أضعفها يومئـذ صيحات في الهواء ٠٠ ما أقواها بعد ذلك أثرا في دوافع التاريخ ما أضخم المعجزة ٠٠ وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون ٠٠

فتوح ايمان

على أننا نستعظم الأحداث العظام في تـاريخ بني الانسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان ٠ وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبـدل في التاريخ ، ويبعث دوافع الشعوب ٠

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للانسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الايمان ، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التي تهول الأنظار ٠

ولقد فتح الاسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات ، فلم يزد الارض بما استولى عليه من أقطارها ، فان الارض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتـداد التخوم (٢) وراء التخوم ، ولكنـه زاد الانسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة الى الله ٠

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة في عالم الضمير ٠٠ فمن أنكرها فانما ينكر تقدم الانسان كثيرا أو قليلا في هـذه الطريق ٠

عقد عالم أوربي مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل :

---

١ ــ الارض ٢ ــ الحدود ٠

« أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب قائلا : « انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وانه لخليق (١) في هذه الفضيلة أن يسامي أوفر (٢) الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني اسرائيل ، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق ، وصبر على الايذاء يوما بعد يوم عـدة سنين ، وقابل النفي والحرمـان والضغينة (٣) ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى (٤) ما يصبر عليه انسان دون الموت الذي نجا منه بالهجرة ، ودأب (٥) مع هذا جميعه على بث (٦) رسالته غير قادر على اسكاته وعد ولا وعيد ولا اغراء ... وربما اهتدى الى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان ، الا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم في العالم مثل ما أقام به من ايمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك الا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الايمان . فاذا سأل سائل : « ما الذي دفع بمحمد الى اقناع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم انه هو العمق والقوة في ايمانه بصدق ما دعا اليه » ..

والحقيقة التي يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم ، هي هذه : هي أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وأن قوة محمد قـوة ايمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل . لقد جاء الاغراء الذي أشار اليه العالم الأوربي وهو داع مهدد في سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته ، فما حفل (٧) بالاغراء وهو بعيد من مقصده ، ولا حفل به وهو واصل اليه .

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو في مبدأ أمره فقال له واعدا ملاطفا بعد أن أعياهم (٨) تخويفه متوعدين : « يا ابن أخي ، انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني

---

١ ـ الجدير ٢ ـ اعظمهم واكثرهم ٣ ـ الحقد ٤ ـ اي غاية ٥ ـ دأب من عمله : جد وتعب ٦ ـ نشر ٧ ـ اي اهتم ٨ ـ اجهدهم .

أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها • فقال عليه السلام : قل يا أبا الوليد • فقال : يا ابن أخي !•• ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان الذي يأتيك رئيا(١) من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » • فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ثم تركه يعود كما أتى •

ثم أدرك النبي غاية ما سعى اليه فلم يدخل له المال ولا المتاع في حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل في اغرائه من النعيم الموعود ، بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة، وكان النبي أزهد فيه من زهده في النعيم الموعود فلم كل هذا ؟ لم هذا الجهاد ؟ ولم هذا العناء (٢) ؟ ولم هذا الصبر ان لم يكن في سبيل الايمان ؟ وأي نبي له من الايمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ، ورسالة أكبر من هذه الرسالة ؟•• وأي انسان يعرف تعظيم الأنبياء ان لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم ؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشانئيه (٣) : حكمه أنفذ من حكم الشانئين والاصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين،وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين •• لأنه حكم الله•

وقد حكم له أنه كان في نفسه قدوة المهذبين ، وكان في عمله أعظم الرجال أثرا في الدنيا ، وكان في عقيدته مؤمنا يبعث الايمان ، مصاحب دين يبقى ما بقيت في الأرض أديان •

وسيطلع في الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب في الليل قمر ويعود قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التي كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور ، لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ، ولا مواعد الاشغال ، ولا أدوار الدواوين والحكومات ،ولاينتظرونها الا هداية مع الظلام ، وسكينة مع الليل : أشبه شيء بهداية العقيدة في غياهب (٤) الضمير •

---

١ ـ مسا ٢ ـ التعب ٣ ـ مبغضيه ٤ ـ أي ظلمات •

يوم الغار

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية،وكأنها تقبل بمعلم منمعالم السماء يوميء(١)الى بقعة من الارض : هي غار الهجرة ، أو يوميء الى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته،وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذي اختاره المسلمون بالهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم •

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ في الاسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟ ولم لم يكن يوم بدر ، أو يوم ولادة النبي ، أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ •• كل يوم من هذه الأيام كان في ظاهر الرأي وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة في جنح الظلام •

فالرجل الذي اختار يوم الهجرة بدءا لتاريخ الاسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والايمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه •

لأن العقائد انما تقاس بالشدائد،ولا تقاس بالفوز والغلب: كل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة ، أما النفس التي تعتقد حقا ، ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء •

وليس يوم أحق بالتأريخ اذن من اليوم الذي هجر فيه النبي بلده ••• « اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا • فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم (٢) » •

ليقل من قال : ان التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتا معروفا على عهد النبي عليه السلام •• وليقل من قال : ان دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم •• ليقل من قال هذا أو ذاك ، فان تاريخ النصر في القرآن ظاهر اذ هو « ثاني اثنين » في الغار •

---

١ ـ يشير ٢ ـ الاية : ٤٠ من سورة التوبة •

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد ــ سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح ــ حين نظر الى غار « ثور » ولم ينظـر في التاريخ الى نصر المدينة ولا الى نصر بدر ، ولا الى نصر أحد ، ولا الى نصر فارس ، ونظر الى تلك « الجنود التي لم تروها » وقد نراها نحن الآن ٠

يوم الدعوة لم يكن يوم الاسلام الاول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل انسان ، ويستطيع النكول (١) عنها بعد قليل أو كثير ٠ ويوم ميلاد النبي لم يكن يوم الاسلام الاول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الاسلام كما كان ميلاد عيسى معجـزة المسيحية ، ولأن محمد بشر مثلنا في مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ، ويوم نجا بالدعوة الى حيث تنجو وحيث تسود،وحيث يكون امتحانها الاول في قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان في غار ٠

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشـدة تاريخها ، وليس بالغنائم والفتوح وانها لشيء في القلوب ، فلنعرفها اذن حين لا تكون الا في القلوب ، وحين يكون كل شيء ظاهر كأنه ينكرها وينفي وجودها وهي يومئذ من الوجود في الصميم ٠

يوم عقيدة ورجاء

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه في كل يوم ولا سيما أيام القلق والحيرة والانتظار ٠

انه يوم عقيدة : فهو يوم رجاء ، ويوم نظر الى المستقبل الذي ينظر اليه من ليس له رضى في حاضر عهده ، وحاضر العالم في عهده لا يرضى أحدا من محبيه ٠٠ حيثما غلبت الحيرة والقلق في العالم فهنالك أمر واحد كن منه على أتم اليقين ٠ كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية !

لأنه يضيق بالحاضر وينظر الى المستقبل ، وكل مستقبـل فلا محل له من جوانح الصدور ان لم يكن موضع رجاء ومرجع ايمان ، وغاية سعي يستحق الكفاح ٠٠ وفي التاريخ الانساني كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضي الذي لا مستقبل بعده، انما تقوم الحركات العظمى جميعا على الرجاء في غد محجوب(٢)

١ ــ النكوص والرجوع ٢ ــ مستور غير مرئي ٠

أو على شيء يمكن أن يتحقق في حياة الانسان ، وشيء يبقى أبدا موضع الرجاء البعيد •

لقد كان علي فتى يستقبل الدنيا ، وكان أبو بكر كهلا يدبر عنها يوم أعانا محمدا في يوم حراء •• ولكنهما كانا معا على أبواب غد واحد ورجاء واحد ، يستوي فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف (١) الى قبره ، لأنه رجاء الايمان لا رجاء العيان (٢) •

المستقبل للايمان

ماذا فتح الاسلام لأبي بكر من عوالم الحياة ؟ هل رجع به الى الماضي ، أو أقبل به على المستقبل ؟ هل مشي به في حركة الى أمام أو قفل (٣) به في رجعة الى وراء ؟ الحق أن الاسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب ، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء ، وكان يفتح أمام أبي بكر — وليس أمام علي وحده — باب الحياة الصالحة في الدنيا ، وباب الحياة الخالدة في الآخرة •• وهكذا كل عقيدة فما هي بعقيدة على أي معنى من معاني الاعتقاد ان كان خيرها كله شيئا يناله الانسان في أيامه •• فلا مناص في العقيدة من خير وراء أيام الفناء • ليذكر هذا جميعه من يتحفزون (٤) للنهوض ومن يبتغون الحركة ، ويقودون الخطوات المقبلة في عجلة أو أناة (٥)

لن تتحرك أمة الا اذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن تلتفت الى الماضي الا اذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن تعيره الحياة الا وهو مبعوث من جديد في صورة الخلق الجديد •

ليذكر هذا من يحارون في أمر العالم اليوم وهو غارق في دمائه ، ضائق بحاضره ، معرض عن ماضيه •• فيم يحار ؟

في طلب المستقبل ، في طلب العقيدة ، في طلب المسوغ للوجود لأن الوجود وحده لا يكفي الانسان الا أن يكون على طبقة مع الحيوان • فالايمان للمستقبل •• وعسى أن يكون المستقبل للايمان

وعسى أن يجد العالم عزاء باقيا من يوم الغار ونحن صاحب يوم « الغار » •

---

١ — الذي يمشي مشي المقيد وفوق الدبيب ٢ — المشاهدة ٣ — رجع وعاد ٤ — أي يستعدون ٥ — تمهل وصبر •

فهـرس